عبدالله عبدالسلام العمادي

شيءٌ من الروح

تأملات فكرية

شيء من الروح «تأملات فكرية»

عبدالله عبدالسلام العمادي

الكويت: قرطاس للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى - 2019

ردمك:

جميع الحقوق محفوظة

تصميم الغلاف: عبدالله عبدالرحمن رستم

لا يسمح باعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي) أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع. دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الوارده في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي قرطاس للنشر والتوزيع

+965 94063321
+965 94495599

qurtasbook

qurtasbook

شيء من الروح
«تأملات فكرية»

عبدالله عبدالسلام العمادي

تَوْطِئَةٌ

هذَا الكتابُ الذي في يدِكَ سيحادثُكَ بصراحةٍ بالغةٍ، وبلغةٍ سهلةٍ وقريبةٍ لكَ، ستجدُ فيها إذا ألقيتَ نظرةً على الفهرسِ عناوينَ مألوفةً، وأخرى تثيرُ استغرابكَ وربّما استنكاركَ، سيكونُ فيها الجديدُ حتمًا وربما شيءٌ لم تقرأْ أحدًا يخوضُ فيهِ من قبلُ.

وأنا بحكمِي قارئًا يعشقُ الاطّلاعَ على مختلفِ فنونِ الكتابةِ، ويحبُّ القراءةَ في مجالاتٍ متنوعةٍ، أكتبُ لكَ حديثًا فكريًا، يخرجُ من عقلِي ليمرَّ بعقلكَ، ربما تستسِيغهُ وتتفقُ معهُ وربمَا تنتقدهُ، وكلَا الخيارينِ مطلوبانِ؛ فليسَ يُفترضُ أن يكونَ كلُّ ما يُكتبُ حقيقةً صحيحةً حتمًا، ربما هيَ أفكارٌ ورؤًى من منظورٍ مختلفٍ.

لستُ ذلكَ الكاتبُ الذي يظنُّ أنه بكتابةِ كتابٍ ما فإنهُ أصبحَ من سدنةِ الفكرِ والثقافةِ، المُحتذَى بهمُ، يأخذُ بدفّةِ عقلكَ ليُوجّههُ لكَ يُمنةً وشِمالًا، ويأخذُ بمقدمةِ قلبكَ، فيملؤهُ بما يظنهُ هوَ أنهُ ينفعكَ من الوعظِ والمحاشِيِّ اللفظيةِ التي لا تخرجُ منهَا بطائلٍ، أو يملِي عليكَ نصائحَ وخطواتٍ عمليةً لتصبحَ ناجحًا وبالغَ الثراءِ، لا لَا هذَا الكتابُ لن يخدعكَ كما تفعلُ الكتبُ الأخرَى.

أيِ القارئَ الكريمَ بوقتهِ، دافعِي لكتابةِ هذا الكتابِ الذي يُحاولُ أن يعقدَ معكَ صداقةً، هو أنْ يغيّرَ فيكَ شيئًا مَا، أو يُذكّركَ بموضوعٍ طافَ على فكركَ وشردَ منكَ مسرعًا دونَ أن تستطيعَ الإمساكَ بطرفهِ وتأمّلَ جوانبهِ والنظرَ في أعماقِه.

لن يُحدثَ إعصارًا في مخيلتكَ – أرجو ذلكَ – ولكنهُ سيعيدُ تنشيطَ أجزاءٍ من عقلكَ، على اعتبارِ أن العقلَ مادّةٌ وتتكونُ من أجزاءٍ، لا أحدَ يعلمُ الحقيقةَ فعلًا.

هذهِ دعوةٌ لإعادةِ التفكيرِ في كلِّ ما يحيطُ بكَ، في كلِّ كلمةٍ، وفي كلِّ فكرةٍ، وفي كلِّ مفهومٍ تجذّرَ في ذاكرتكَ.

أعدِ التفكيرَ فيهِ مرةً أخرَى، أو مراتٍ أخرى كَمَا تشاءُ، لا يعني ذلكَ أن تستبدلَ شيئًا، ولكنَّ النظرَ من زوايةٍ أخرى يجعلُ الأشياءَ تبدو أجملَ وأوضحَ عن النظرةِ الأولَى.

إذَا لمْ تعجبكَ هذهِ المقدمةَ، فربما لنْ يُعجبكَ المحتوَى الذِي يليهِ، فلا تُضيّعْ وقتكَ في قراءةِ الكتابِ ، معَ أنَّهُ لا توجدُ قراءةٌ ضائعةٌ.

فالقراءةُ الجديدةُ تضيفُ الكثيرَ، والقراءةُ الثانيةُ تكتشفُ فيها أشياءَ فاتتكَ ولمْ تفهمهَا جيدًا، وحتَّى قراءةَ الكتابِ السيّءِ؛ في أسوءِ الأحوالِ سيُعلّمكَ كيفَ تُكتبُ الكتبُ السيئةُ، وكيفَ تتجنبُهَا في المرةِ القادمةِ.

يا مُطَوَّعُ

قديمًا فِي منطقةِ الخليجِ خاصةً، لمْ تكنْ هُناكَ أيةُ مدارسَ للتعليمِ النظاميِّ، وكانَ الأهالِي يُرسلونَ أطفالَهُم لتلكَ المدرسةِ البدائيّةِ، فيجتمعُ أطفالُ الحيِّ الواحدِ عندَ رجلٍ لتعليمهمْ القرآنَ والكتابةَ والحسابَ، هذا الرجلُ يُسمَّى «المطوّع».

خرّجَ هذا النظامُ التعليميُّ العشوائِي آباءً كافحوا في سبيلِ العيشِ وتوفيرِ حياةٍ لا يقبلُ عيشَهَا الآن أيُّ أحدٍ من الأحفادِ.

أصلُ تسميةِ «المطوّع» جاءتْ من الفعلِ الاختياريِّ الذي يقومُ بهِ الشخصُ من تلقاءِ نفسهِ. وفي اصطلاحِ الفقهِ هو العملُ الصالحُ الزائدُ عنْ الفرائضِ، كالنوافلِ وسائرِ الطاعاتِ المُطلقةِ. ولا شكَّ أن ذلكَ «المطوّع» كانَ يقومُ بعملهِ اختيارًا وطلبًا للأجرِ والمثوبةِ، أو ربما يتقاضَى عليهِ أجرًا يستحقّهُ مقابلَ عملهِ التعليميِ الفريدِ.

أعلَمُ أنَّ كلَّ ما ذُكِرَ مسبقًا قدْ مرَّ عليكَ، ولكنْ وجبَتِ العودةُ للماضي قليلًا حتى نستصحبهُ معنَا ونقارنهُ مع الحاضرِ.

الآنَ لا يوجدُ «المطوّع» حسبَ اصطلاحِ القدماءِ، ولكنَّ هذا لم يمنعِ استمرارَ هذا المصطلحِ على ألسنةِ الناسِ يلوكونَه على أشخاصٍ معينين.

إذنْ من هوَ «المطوّع» الآنَ؟

هوَ رجلٌ بالطبعِ، يجبُ أن تظهرَ عليهِ صفتان، لحيةٌ في الوجهِ، وقِصرٌ في الثوبِ، لكن، هل هذا يدلُ على الاستقامةِ؟.

حسبَ رأيي، أنّ الرجلَ الذي تظهرُ عليهِ هاتانِ الصفتانِ (تديّنًا) هوَ شخصٌ خيّرٌ ومُحبٌّ للخيرِ، وذلكَ لعدةِ أسبابٍ.

الأولُ أنَّ في هذا اتباعًا لأوامرِ الرسولِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ وطاعةً لربهِ، فقدْ جاءتِ الأحاديثُ الصحيحةُ في الأمرِ بوجوبِ إعفاءِ اللِحَى وحفِ الشوارب [1] وتقصيرِ الثوبِ [2].

الثاني أنَّ الشخصَ قد خالفَ الأغلبيةَ، فهو متمسكٌ بقيمهِ ولو كانَ الناسُ على خلافِ ذلكَ، فممّا هو معلومٌ أنَّ مخالفةَ الناسِ صعبةٌ على النفسِ وفيها غربةٌ عنهمْ.

واكتفاءً بما ذكرتُ، فإن الشخصَ على هذه الصفةِ يبدُو في طريقِ الاستقامةِ، فقدْ أقامَ واجبًا وهوَ إعفاءَ اللحيةِ وامتنعَ عن محرمٍ وهوَ تطويلِ الثوبِ تحتَ الكعبينِ.

ولكنْ لا يعني ذلكَ أنّ الرجلَ كاملُ الاستقامةِ، أيْ أنّهُ لا يفعلُ معصيةً قطْ، فلا يوجدُ مثل هذا الشخصِ في عالمِ الإنسِ، بلِ الملائكةُ فقطْ هم من

(1) أخرج البخاري في صحيحه فيما يرويه عبدالله بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَعْفُوا اللِّحَى وَحُفُّوا الشَّوَارِبَ».

(2) أخرج البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: «مَا أَسْفَلَ مِنْ الْكَعْبَيْنِ مِنْ الْإِزَارِ فَفِي النَّارِ».

يطيعونَ اللهَ ولا يعصونهُ أبدًا لانعدامِ شهوتِهم، ولخلقِهِم من نورٍ.

وبما أنَّ الإنسانَ مزروعةٌ فيه الشهواتُ اختبارًا لهُ، فلا بدّ أن يعصي اللهَ في أمورٍ، ويطيعَهُ في أمورٍ أخرَى، وليسَ المُرادُ هُنا فعلَ المعاصي والتحججَ بأنها طبيعةٌ بشريةٌ، أو تقديرٌ من الله [1]، فكلٌ ميسّر لما خُلق لهُ، ويجبُ الاستغفارَ والتوبةَ في كلِّ يومٍ.

وأمّا إطلاقُ لفظِ «المطوّعِ» على الشخصِ الذي نلحظُ فيهِ التزامًا فهوَ استخدامٌ خاطئٌ، والأولَى أنَ نقولَ أنهُ مستقيمٌ، فهذا هو اللفظُ الواردُ في القرآنِ الكريمِ.

كما في قولهِ عزَّ وجلَّ: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا}، وقولهِ: {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ}.

ولا يجوزُ أن نتصوّرَ وجودَ شخصٍ بدونِ زلّاتٍ، فننزعُ عنهُ الاستقامةَ إذا شاهدْنَا منهُ خطأً أو زلّةً، والواجبُ على المسلمِ أن يسترَ أخاهُ المسلمَ كما وُرِد في الحديثِ [2].

وأمّا عنْ إطلاقِ الألفاظِ المميّزةِ (مطوع.. ملتزم.. ديّن) فهو سلوكٌ

---

(1) اتفقَ العلماءُ والعقلاءُ أنهُ لا يجوزُ الاحتجاجُ بالقدرِ على فعلِ المعاصي، وهذا مستفيضٌ في كتبِ العقيدةِ وأصولِ الإيمانِ، ودليلُ ذلكَ قولُ الله تعالَى {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا}، فهُنا احتجَّ المشركونَ على القدرِ وأنَّ شركهُمْ بمشيئةِ الله تعالى، وردَّ اللهُ على قولهِمْ ووصمهُمْ بالكذبِ وأبطلَ احتجاجَهمْ.

(2) أخرج المسلمِ في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «من نفَّسَ عن مؤمنٍ كُرْبَةً من كُرَبِ الدنيا نَفَّسَ اللهُ عنهُ كربةً من كُرَبِ يومِ القيامة، ومن يسَّرَ على مُعسرٍ يسَّرَ اللهُ عليهِ في الدنيا والآخرةِ ومن سترَ مُسلمًا سترهُ اللهُ في الدنيا والآخرة واللهُ في عوْنِ العبدِ ما كانَ العبدُ في عوْنِ أخيهِ ومن سلَكَ طريقًا يلتمسُ فيهِ علمًا سهَّلَ اللهُ له به طريقًا إلى الجنة وما اجتمعَ قومٌ في بيتٍ من بيوتِ الله يتلونَ كتابَ الله ويتدارسونَهُ بينهم إلاَّ نزلتْ عليهمُ السكينةُ وغشيتهم الرحمةُ وحفَّتهم الملائكة وذكرَهمُ اللهُ فيمن عندَهُ ومن بطَّأَ بهِ عملُهُ لم يُسْرِعْ بهِ نسبُهُ».

خاطئٌ في أساسهِ. فماذَا يعني لو أن الرجلَ أطاعَ اللهَ في هيئتِهِ، وأعمالِهِ الظاهرةِ، وصلّى الفروضَ وامتنعَ عن سماعِ الأغاني [1] والنظرِ إلى المحرماتِ، والتزمَ الذكرَ والوعظَ ونهى أصحابَهِ عن المنكراتِ؟

هلْ في هذا الشخصِ ما هوَ مميزٌ يجبُ أن يُعرّفَ بإطلاقِ لفظٍ ما؟

أليستْ كلُّ هذه الأفعالِ واجبةً على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ فيمنْ دخلَ دائرةَ الإسلامِ وآمنَ باللهِ ورسولِهِ؟.

هذهِ هي الحقيقةُ المُرّةُ، فالناسُ منغمسينَ في ملهياتِ الدنيَا، ويعملونَ المعاصيَ من غيرِ حياءٍ، فيرونَ الشخصَ – الذي يُفترضُ أن يكونَ هوَ كلُّ شخصٍ منّا – ملتزمًا ومطوّعًا، والأصحُّ أنهُ مسلمٌ فقطْ.

أخِيرًا وجبَ القولُ أنّهُ ليسَ في الإسلامِ رهبانيةٌ كما في الأممِ السابقةِ، يعني ذلكَ أنهُ لا توجدُ فئةٌ من الناسِ ممن يقيمونَ يومَهُم وليلتَهُم في دورِ العبادةِ ويعتزلونَ الدنيَا ومتاعَهَا، ويمتنعونُ عن المُباحاتِ كمَا يفعلُ القساوسةُ والحاخاماتُ.

فليسَ في الإسلامِ طائفةٌ تُسمى «رجالُ الدينِ»، بلْ كلُّ مسلمٍ هو رجلُ دينٍ في المقامِ الأَوِل بحيثُ أنه لا يُمكنُ أنْ يُنتزعُ المسلمُ من دينِهِ في أي شأنٍ من حياتِهِ.

(1) قدْ يقولُ البعضُ أنَّ الموضوعَ فيهِ خلافٌ، وإن كانَ فلا يجوزُ للعاميِّ الذي لم يصلْ مرحلةَ الاجتهادِ أو الترجيحِ أن يختارَ ما يعجبهُ من أقوالِ الفقهاءِ وإن شذَّ القولُ الإجماعَ، فقدْ قيلَ «من تتبعَ رخصَ العلماءِ فقدْ تزندقَ».

فلا يكونُ المسلمُ مسلمًا حقًا إذا تعبّدَ وصلّى وتركَ التديّنَ في معاملاتهِ، فعاملَ الناسَ بالغشِّ والخديعةِ، أو أنْ يعاملَ النّاسَ بالعدلِ والإحسانِ والأخلاقِ الحميدةِ بينَما ينسَى دينَهُ في العباداتِ فلا يُخرجُ زكاةَ مالهِ، ولا يخشعُ في صلاتهِ. فالمسلمُ هو المستسلمُ لله ولشريعتهِ والمطيعِ لأحكامهِ عقيدةً وتعبدًا وتعاملًا، فيظهرُ ذلكَ كلُّه فيهِ.

ولا نعنِي بقولنَا ليسَ في الإسلامِ رهبيانةٌ، أن المسلمينَ جميعَهم على درجةٍ واحدةٍ من الإيمانِ والاستقامةِ. فالمسلمونَ يتفاوتونَ حسبَ أعمالِهم وإخلاصِهم، فمنهمْ من يبلُغَ أعلى الدرجاتِ وهيَ درجةُ الإحسانِ، فيستشعرُ أنَّه يرى اللهَ في كلِّ أوقاتهِ، ومنهمْ دونَ ذلكَ، فإن لمْ يكُنْ يرى اللهَ فإنّهُ يستشعرُ مراقبَتَهُ لهُ.

ولا نعني أنْ ليسَ من المسلمينَ منْ دينهُ وعلمهُ أقوى من غيرهِ، فهناكَ من يطلبُ العلمَ، وهناكَ من يُعلّمُ الناسَ، فالأولُ يُسمى «طالبُ العلمِ»، ومن يُطلَبُ عندهُ العلمَ يُسّمى «عالمٌ» أو شيخٌ، ولو أنَّ لفظةَ الشيخِ أيضًا لها مساوِئُهاَ العديدةُ، لتنوعِ مجالاتِها الدينيةِ والسياسيةِ والقبليةِ، وهذا موضوعٌ آخر.

أَعَفُّهُ أَحَبُّهُ

ومن الذي لم يَكتُبْ عن الحبّ، لا يُعد الكاتبُ كاتبًا حين لا يُحبّ ما يكتبُ أو لا يكتبُ عن ما يحبّ، أما عندما لا يحبُّ فهو ليس إنسانًا مفطورَ الفؤادِ.

لكن ماذا يعني الحبُّ؟

جوابي عن ذلكَ واسعٌ، فكلُّ المعاني الجميلةِ في اللغةِ تُرادف الحبَّ، وكلُّ الأفعالِ الحميدةِ تنبعُ منَ الحبِّ، وكلُّ الأقوالِ الجميلةِ تخرجُ من قلوبٍ يعمُرها الحبُّ.

هذا المعنى الواسعُ للحبِّ يتجلى في كلِّ ما هوَ جميلٍ نراهُ من حولِنا، وما إثباتُ ذلك؟

هل يستطيعُ من لا يُحبُّ أن يتصورَ الجمالَ في أي شيء؟

أنتَ عندمَا تكرهُ وتسيطرُ عليكَ دوافعُ الكراهيّةِ، هل ستُلاحظُ أيَّ جمالٍ يشيرُ إليهِ النّاسُ أم سترى العالمَ قبيحًا؟

نظرتُنا للجمالِ والقبحِ تتأثرُ بشكلٍ كبيرٍ بمشاعرِنا الداخليةِ كالحبِ والكرهِ والغضبِ والرضَا؛ إذنْ هناكَ تلازمٌ بين الحبِّ والجمالِ، وضدّ

ذلكَ تلازمٌ بين الكرهِ والقبحِ.

هذا هوَ الحبُّ، ولكن ماذا عنِ العفّةِ؟ وكيف يكونُ الحبُّ عفيفًا؟

العفّةُ في اللغةِ هيَ الكفُّ عن ما لا يليقُ، المسلمُ العفيفُ هو الذي يكفُّ عنِ الحرامِ وما لا يحلُّ لهُ، وعفيفُ النفسِ هو الذي ينأى بنفسِهِ عنْ سفاسفِ الأمورِ ومُحِطّاتِ الأفعالِ.

إذن الحبُّ العفيفُ هو ذلكَ النوعُ من الحبِّ الذي يسمُو عن الرذائلِ، وعن كلِّ ما يعكِّرُ صفوَ الحبِّ وقِوامَه. فما بُنيَ عليهِ الحبُ يكونُ أصلًا يقومُ عليهِ، ويكونُ عفيفًا إذا اجتُنبَتِ الأمورُ التي تخدشُ بناءَ الحبِّ وغلافهِ الرقيقِ، وهذا المعنى يختلفُ باختلافِ طرفِي الحبِّ وما اتفقَا عليهِ.

فحبُّ الزوجِ لزوجتِه من أسمَى أنواعِ الحبِ وأعفِّهِ، حيثُ لا يخدشُه ولا يسوؤهُ إظهارُ الشهوةِ والفحشُ في الكلامِ وغيرِهِ، ولا يزيدهُ فعلُ الجماعِ بين الزوجينِ المتحابَّيْــنِ إلا قوةً وتماسكًا.

وما يصحُّ في حبِّ الزوجينِ لا ينطبقُ على حبٍ لا يربطُ طرفيهِ شيءٌ سوى الحبُّ فقطْ.

فهذا الحبُّ – وهو الحبُّ المعروفُ بلا رابطةِ زواجٍ – من بالغِ الصعوبةِ أن يَتوقّى عن ما يَسوؤُه، وهوَ الذي يحتاجُ لمزيدٍ منَ العنايةِ والرعايةِ، كي لا يَجرحُ غلافَهُ الرقيقَ شيءٌ.

ومعنى الحبِّ العفيفِ أخصُ ما يكونُ في هذا النوعِ، حيثُ أنَّ العفّةَ فيهِ تكونُ في السموِّ عن الشهوةِ الجسديةِ وتجاوزِ الحدودِ الضابطةِ لهُ، وتختلفُ

هذه الحدودُ باختلافِ الثقافاتِ والعاداتِ المجتمعيةِ، ولكنَّهَا يجبُ أنْ لا تتعدَى خطوطَ الدينِ والعُرفِ، فعندهَا ينقلبُ الحبُّ من عفيفٍ إلى رذيلٍ، وينقلبُ من المُستحبِ إلى المحرّمِ، ولا أقصدُ هُنا حكمًا فقهيًا أو تأصيليًّا فلِهذا الشأنِ أهلُهُ العارفينَ، إن كانوا من المُحبّينَ.

قدْ يقولُ القائلُ: ماذا عنْ حبّ الله ورسولِه وحبِ الوالدينِ والأقاربِ؟

وأقولُ أنَّ اختلافَ طرفَي الحُبِ يعني حُبًا مختلفًا في طبيعتِهِ وبنائهِ وإن كانَ يشتركُ في المعنى الواسعِ لكلمةِ الحبِ.

فحبُّ الله جلَّ وعلا منْ أجملِ أنواعِ الحب ويبلغُ فيه الحبُّ أقصَى كمالاتِه وحدودِه، حيثُ يكونُ المحبوبُ أعظمُ شيءٍ في عينِ المُحبِ، وهذا التعظيمُ الواجبُ لله تعالى يكونُ في التذللِ لهُ والخضوعِ لأوامرِه واتباعِ شريعتِهِ، وهو الذي يقعُ تحتَ مُسمَى العبادةِ، فالعبادةُ هو غايةُ الحبِ ونهايتُهُ.

يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ:

«والعبادةُ تتضمنُ كمالَ الحبِّ ونهايتِهِ، وكمالَ الذلِّ ونهايتِهِ؛ فالمحبوبُ الذي لا يُعظَّمُ ولا يُذَّل لهُ لا يكونُ معبودًا، والمُعظَّمُ الذي لا يُحِبُّ لا يكونُ معبودًا».

أما عنْ حبِّ الوالدينِ والأشقاءِ والأقاربِ، فهذا لهُ معنى خاصًا به كما ذكرتُ، وهو يُحَدّ بحدوده ولا يُتجاوزُ، ولهذا يكونُ الحبُّ هذا في أصلهِ

عفيفًا، لأنه مبنيٌّ على علاقاتٍ فطريّةٍ رُبّي عليها الشخصُ تربويًا طوالَ حياتِه.

فمن منّا لا يُكنّ لأمه وأبيه ذلكَ الحبَّ المبنيَّ على الاهتمامِ والرعايةِ والطاعةِ، وتقديرًا لمنزلتهما ووجودهما، ومن منّا لا يهتمُّ بأشقائه ويحنُّ عليهم، ويقدمُ كل ما لديه لمساعدتهم ويضحي من أجلِهم، هذه الأنواعُ من الحبّ تكونُ مبنيةً على الأفعالِ بشكلٍ أساسي، ولا تحكمهُ أو تتحكمُ به المشاعرُ والعواطفُ، عدا أنها لا تخلُو مِنها.

وحبُّ الأصدقاءِ من نفسِ الجنسِ هو أيضًا حبٌّ أخويٌّ، فغايتُهُ أن يصلَ الصديقُ في شدّة قربه ومحبته إلى منزلةِ الأخِ الشقيقِ، ولهذا عندما تكونُ الصداقةُ قويّةً بين الصديقينِ، يُعرّف الصديقُ صديقَه أمام الناسِ بأنهُ أخوهُ الذي لم تلدهُ أمُّه، فهذا غايتُه ولا يُتجاوزُ.

أمّا عن الصديقِ من جنسٍ آخرٍ، فهل يستحيلُ أن يكونَ هذا النوعُ من الحبِّ عفيفًا؟ أو دعني أصيغُ السؤالَ بطريقةٍ أبسطَ:

هل يُمكنُ أنْ يكونَ حبُّ الصديقِ لصديقتِهِ مثل حبّهِ لصديقهِ الذي يماثلهُ في الجنسِ؟

قدْ يستنكرُ القارئُ، وهل توجدُ علاقةُ صداقةٍ بين الجنسينِ؟ نحنُ لا نرضى ذلكَ في مجتمعنَا المحافظِ وعاداتُنَا لا تسمحُ. هذا الصوتُ الناصحُ لا شكَّ في صوابِه، لكنَّ الواقعَ لهُ صوتٌ آخرٌ أشدُّ سماعًا وأقوى حضورًا، وهوَ أنَّ الصداقاتِ بين الجنسينِ موجودةٌ في مجتمعنَا ولا ينكرُ ذلكَ إلا جاهلٌ.

ولكنْ قبلَ أن أسترسلُ في موضوعِ الحبِّ بين الصديقِ وصديقتِهِ، سأبيّنُ ماذا تعنِي الصداقةُ؟ وكيفَ تتغلغَلُ في العلاقاتِ في شكلٍ نشاهدهُ ونعرِفهُ؟

مفهومُ الصداقةِ بشكلٍ عام يرتكزُ على قيمٍ تبادليةٍ ومنفعةٍ متبادلةٍ قد تكونُ ضروريةً لاستمراريةِ العلاقةِ أو لا تكونُ، لكن لا تنفكُّ علاقاتُ الصداقةِ المقربةِ أن تتخللَها هذه القيمُ، وهيَ:

أولًا - الاستمتاعِ:

فالصديقُ هوَ منْ تسعدُ عندمَا تقضِي وقتَك معهُ، وإذاَ كانَ الصديقُ يسبّبُ لكَ الضجرَ والكآبةَ فقدْ تضعفُ علاقةَ الصداقةِ وتنحلُ في وقتٍ مبكرٍ إلا إذا عوّضَ غيابَ الاستمتاعِ قيمةٌ أخرى أكثرُ طلبًا.

ثانيًا - المساعدةُ:

فهيَ منفعةٌ نرجوها من الصديقِ، ويطيبُ لنا تقديمَهَا لهُ متى بانَ لنا ذلكَ أو سألهَا، فالصديقُ الحقيقيُّ هو الذي لا تتردّدُ بطلبِ المساعدةِ منهُ في أصعبِ الأوقاتِ.

ثالثًا - الاحترامُ:

هو جوهرٌ أساسيٌ في كلِّ علاقةٍ إنسانيةٍ، ومهما بلغتْ العلاقةُ أمدًا طويلًا، فقدْ تنهارُ في لحظةٍ عندما يُفتقدُ الاحترامُ، وتتعرضُ للإهانةِ.

رابعًا - التلقائيةُ:

وهيَ شيءٌ يأتي معَ الوقتِ، ولا يظهرُ معَ الغرباءِ، حتى معَ أكثرِ الناسِ انطواءً، ومنْ يغلبُ على سمتِهِ الكتمانُ والهدوءُ، فإنَّ لهُ جانبًا عفويًا وتلقائيًا لا يظهرُ إلا معَ الصديقِ، فهذهِ القيمةُ دلالةٌ حقيقيةٌ على علاقةِ الصداقةِ.

خامسًا - التقبلُ:

وهوَ قيمةٌ متبادلةٌ، تنشأُ في بدايةِ العلاقةِ، وإنْ أخلَّ الصديقُ بصورتهِ عن طريقِ أفعالٍ لا يتقبلها صديقهُ أو أمورٍ تخدشُ مبادئهُ هُنا ستنتهي العلاقةُ.

سادسًا - الثقةُ:

أيضًا منْ مقومّاتِ العلاقةِ وسببٌ في استمرارِها، ومن لا تكسبُ ثقتَه لن تستطيعَ أن تحترمَهُ.

سابعًا - الفهمُ:

هو خاصيّةٌ منْ خصائصِ الصداقةِ التي يعززُ وجودُهَا منْ العلاقةِ، ويكونُ سببًا في تعميقِها ودوامِهَا.

ثامنًا وأخيرًا - الإفصاحُ عن الذاتِ:

وربما تكونُ هذهِ القيمةُ هيَ المطلبُ الأساسيُّ من علاقةِ الصداقةِ، وهيَ دلالةٌ أساسيةٌ على عُمقِ الصداقةِ، لكنها تختلفُ حسبَ قُربَ الصديقِ، وتبادلُ الأسرارِ وعمقهَا يتناسبُ معَ ازديادِ جميعِ العواملِ أو

القيمِ السابقةِ مجتمعةً.

لكن, متى تتطوّرُ علاقةُ الصداقةِ إلى حبٍّ؟

أميلُ إلى تغليبِ «تصور دافيز» للعلاقةِ بين الحبِ والصداقةِ، حسبَ هذهِ المعادلةِ: الحب = الصداقة + الشغف والعناية [1].

فأصلُ الحبِّ يندرجُ تحتَه مفهومُ الصداقةِ أولًا، أي أن الصداقةَ داخلةٌ في الحب والحبّ زائدٌ عليها، لكنَّ الصداقةَ ليستْ سابقةُ الوجودِ دائمًا لعلاقاتِ الحبِّ، ولكنها قد تبدأُ بهِ.

وحسبَ المعادلةِ فإن الصداقةَ تقفزُ للحبِّ عندما يتدخلُ القلبُ وعاطفتُه في العلاقةِ، فيُصبح الطرفُ الآخر أكثرَ من صديقٍ عندما يشغُف القلبُ به، ومعناهُ أن يتعلقَ به ويشتاقَ لهُ، ويطلبَ ما يحدث بين المتحابينِ من الوصالِ والغزلِ والعناية.

هذا الحدّ الفاصلُ بين الصداقةِ والحبِ رفيع جدًا، ويصعبُ التحكمُ به، لأنه عائدٌ إلى عمل القلبِ، والقلبُ في طبعه يتقلّبُ، وقدْ يظلُ الحبّ بهذا المفهومِ عفيفًا في إطاره العُرفيِّ المقبولِ، إلا أنَّه يصعبُ أن يستمرَ على هذا الوضعِ طويلًا، وهذا ليسَ موضوعًا للنقاشِ أو التجربة.

وعليهِ أجيبُ عنِ السؤالِ الأخيرِ، لا يُمكنُ أن تظلَّ الصداقةُ بينَ الصديقينِ مختلفي الجنسِ لفترةٍ طويلةٍ، فسُرعانَ ما يشغفُ القلبُ بالأنثى، وتشغفُ الأنثى بالذكرِ، وسُرعانَ ما تمتلئُ أغلبُ قيمِ الصداقةِ، فتقفزُ

(1) أسامة سعد أبو سريع: الصداقة من منظور علم النفس، سلسلة عالم المعرفة 179، ص 34.

العلاقةُ من الصداقةِ إلى الحبِّ، وهذهِ فطرةٌ جبليّةٌ لا يُمكنُ الفِكاكُ عنهَا.

لعلنِي أختمُ بلمحةٍ من قصةِ الحبِ الشهيرة والتي تميّزتْ بالعفّةِ والجنون في الحبِ، نعم لقدْ أصابَ تخمينُك، فهي قصةُ مجنون ليلَى **قيس بن الملوحِ**، وما كانَ بينه وبينَ **ليلى العامريّة** سوى الحبِّ العفيفِ وقصتهُ مذكورةٌ في ديوانهِ وفي تاريخ العربِ.

كانَ بينَ قيسٍ وليلى حبٌ بدأَ منذ الصِّبا، وكبُرَ الحبُّ معهمَا كما كَبِرَا حتى فشيَ ذلكَ الحبُّ بين أهليهِمَا والأقاربِ، وعلى ما كانَ لقيسٍ من الحب فقد بلغَ به حدَّ الجنونِ وأصبحَ يباتُ في البريّة مع الوحوشِ الضواري، بعدَ أن منعَ أهلُ ليلى زواجَه من محبوبتِه، وفي هذَا يقولُ قيسٌ:

لَقَدْ لامَنِي فِي حُبِّ لَيْلَى أَقَارِبٌ ... أَبِي وَابْنِ عَمِّي وَابْنِ خَالِي وَخَالِيَا

يَقُولُونَ لَيْلَى أَهْلُ بَيْتِ عَدَاوَةٍ ... بِنَفْسِي لَيْلَى مِنْ عَدُوٍّ وَمَالِيَا

أَرَى أَهْلَ لَيْلَى لَا يُرِيدُونَنِي لَهَا ... بِشَيْءٍ وَلا أَهْلِي يُرِيدُونَهَا لِيَا

قَسَمْتُ الْهَوَى نِصْفَيْنِ بَيْنِي ... وَبَيْنَهَا فَنِصْفٌ لَهَا هَذَا لِهَذَا وَذَا لِيَا

أَلَا يَا حَمَامَاتِ الْعِرَاقِ أَعِنَّنِي ... عَلَى شَجَنِي وَابْكِينَ مِثْلَ بُكَائِيَا

يَقُولُونَ لَيْلَى بِالْعِرَاقِ مَرِيضَةٌ ... فَيَا لَيْتَنِي كُنْتُ الطَّبِيبَ الْمُدَاوِيَا

تَنَاقُلُ الأفْكَارِ

اللغةُ عمليةٌ عقليةٌ متراكبةٌ ومعقدةٌ، وممّا لا شكَّ فيهِ أنَّ الحديثَ عبرَ لغةٍ مفهومة تحوَي كلماتًا ووجملاً وتراكيبًا تعبّرُ عنِ الأفكارِ والمشاعرِ بهدفِ إيصالِ معلومةٍ أو شرحِ مفهومٍ هوَ عمليةٌ لا يمتازُها إلا البشرُ.

فالحيواناتُ وإن كانتْ تتخاطبُ بإشاراتٍ [1] وإيماءاتٍ وأصواتٍ خاصة [2] إلا أنَّ كلَّ هذهِ العملياتِ لا ترقَى لمفهومِ اللغةِ؛ فعلىَ الإنسانِ أن يشكرَ نعمةَ اللهِ عليهِ واصطفائِهِ على غيرِهِ من المخلوقاتِ بأن علّمهُ وفهّمهُ وميّزهُ باللغةِ والكلامِ، وليرقَ كما كرّمنا اللهُ.

فالعبارةُ التي يقولُها المناطقةُ بأنَّ الإنسانَ هو حيوانٌ ناطقٌ ليسَ تقليلٌ من شأنهِ بل دلالةٌ على تميّزهِ عن باقِي المخلوقاتِ من جنسِ الكائناتِ الحيةِ وخاصةً تلكَ التي تتشابهُ مع الإنسانِ في كثيرٍ من الوظائفِ وطرقِ العيشِ.

فالإنسانُ اصطفاهُ اللهُ بالعقلِ والتفكيرِ، **واللغةُ هي من عملياتِ العقل ومنْ إنتاجِ التفكيرِ**.

(1) يتواصل النمل مع أقرانه عبر حركات معينة بقرون استشعاره يربتّها على ظهر رفيقه، كما يتراقص النحل أمام أعضاء خليته ليدلهم على مكان الغذاء واتجاهه حسب عمود الشمس.

(2) تتواصل بعض أنواع الطيور وغالب الثديّات من الكلاب والذئاب والقردة بأصوات مختلفة تدل على معاني تتمحور حول الغذاء، أو التحذير من الأعداء، أو الغزل والتزاوج.

نحنُ البشرُ عندمَا نتخاطبُ لا نُدركُ كلَّ هذا التعقيدِ الذي يجرِي في نفسيةِ وفيزيولوجيةِ الجسمِ والدماغِ، ولربّما لمْ نُحسنْ توجيهَ حديثِنا بالشكلِ الذي يتلقّاهُ الطرفُ الآخرُ، وهذا أصلُ النزاعِ الذي ينشأُ بينَ المُتحاورينَ.

إنْ كانَ كلُّ فردٍ يستطيعُ تبادلَ دفّةِ الحديثِ بمَا يُناسبُ عقلَ الآخرِ ومنطقَهُ، وإن كانَ الطرفُ الآخرُ يتقبلُ الحديثَ بعقليةٍ ومنطقيةٍ، فلنْ يكونَ هناكَ خلافٌ حولَهُ أيِ الحديثَ، ولنْ يسوءَ الأمرُ، تخيّلْ أنَّ أحاديثَنَا ستنتهِي باستماعِنا قولِ الآخرِ وقولِ ما نريدُ فحسبْ.

لا جدالَ ولا صراخَ ولا قلبَ طاولةٍ أو رميًا لكرسيٍ كما في الاتجاهاتِ المُعاكسةِ!

مِنْ أجلِ تأسيسِ أصولِ هذا الحوارِ سأتطرقُ إلى ملامحِهِ في الفقراتِ التاليةِ معرّجًا على **الأفكارِ**، ثم تمثيلِها بالكلماتِ **المُصطلحِ** عليهَا، والحفاظِ على **تدفّقِ** الأفكارِ، ثم **تغذيتِها**؛ وذلكَ كلُّه في سبيلِ تحقيقِ الهدفِ من الحوارِ وهو أن يكونَ بنّاءً، ومثريًا ومفيدًا لكلِّ أطرافِ الحوارِ.

تواصلُ الأفكارِ العقليةِ عبرَ الحواسِّ لتنتقلَ من شخصٍ لآخرٍ هو ما يُعرفُ بالكلامِ، والكلامُ لا يعتمدُ على اللسانِ فقطْ، بل إنَّ أشرفَ الكلامِ وأحسنَهُ صياغَةً هو ما خُطَّ باليدِ في تأنٍّ وحُسنِ تعبيرٍ؛ فكلامُ اللسانِ قلّمَا ينفصلُ عن زلّاتِه ويتشوّهُ بعثراتِه.

وكذلكَ الكلامُ في أكثرِ الأحوالِ لا يكونُ لفظيًا فقطْ، وإنما جسديًا عبرَ لغتِهِ، فحركاتُ اليدِ وتعابيرُ الوجهِ تحكِي قصةً أصدقُ من حركاتِ

اللسانِ ومرورِ الهواءِ منَ الرئتانِ، وهكذاَ أغلبُ الحديثِ لا يُقالُ بلْ يتجسدُّ في شكلِ صاحبهِ.

هذا هوَ الكلامُ كما قُلنا، ومنشأ الكلامِ الحقيقيِّ هو مخزونُ الأفكارِ الشعوريةِ واللاشعوريةِ في العقلِ وذاكرتهِ. فتلكَ الأفكارُ تختلفُ من شخصٍ لآخرٍ حسبَ تجربتِهِ وفهمهِ وتفاعلِهِ في حياتهِ مع بيئتهِ والأشخاصِ الذينَ مرّ بهمْ والذينَ قرأَ لهمْ.

نتيجةً لذلكَ فإن الفكرةَ الذهنيةَ المُسبقةَ – التصوّر – بين المتحاورَيْنِ كثيرًا ما تتلبّسُ معانيهَا كلماتٌ متباينةٌ، فمثلًا يستخدمُ الطرفُ الأولُ كلمةً معينةً للدلالةِ على الفكرةِ التي في عقلهِ، الفكرةُ في حدِّ ذاتهَا مقبولةٌ عند الطرفِ الآخرِ ولكنَّ الكلمةَ المستخدمةَ لا تعبّر بالشكلِ الصحيحِ عن هذه الفكرةِ المطروحةِ، فإن قيلتْ هكذا واستمرَّ النقاشُ حولَ الكلمةِ المُتباينةِ فكرتُها عندَ الطرفينِ سيؤدي ذلكَ لاختلافِ وجهاتِ النظرِ بشكل عاجلٍ غيرِ آجلٍ وقدْ لا يؤدِّي هذا الحوارُ إلى نتيجةٍ.

فلذلكَ؛ يجبُ قبلَ بدءِ أيَّ نقاشٍ حولَ فكرةٍ ما الاتفاقُ أولًا على معنَى هذهِ الكلمةِ وربطَهَا بفكرةٍ واحدةٍ، أيِ **الاتفاقُ على مُصطلحٍ** محددٍ يعبّرُ عن الفكرةِ بشكلٍ يفهمهُ الطرفانِ على مستوًى واحدٍ، فيكونُ التصورُ الذهنيُّ للمُصطلحِ متطابقًا بينَ طرفيِ الحوارِ.

ثمَّ لكي تُفهِمَ الآخرَ حديثَكَ، يجبُ أن يكونَ الكلامُ مُتسقًا وثابتًا على الفكرةِ الأوليّةِ من غيرِ خروجٍ عن أصلِها والتشتتِ بأفكارٍ أخرى وتفرعاتِها، وهذه العمليةُ هي **التحديدُ**.

فلكيْ يكونَ الحوارُ مجديًا يجبُ أن يتمحورَ حولَ الفكرةِ المطروحةِ ذاتِهَا ولا يُتشعّبُ في أفكارٍ أخرى قدْ تشابِهَا أو تتفرعُ عنها دونَ توضيحِ ذلك، فأغلبُ ما يسيءُ لثقافةِ الحوارِ والنقاشِ عندنا هو هذا الحيدُ عن أصلِ الموضوعِ، والتهرّبُ من الفكرةِ الأوليّةِ والتي هي ما تكونُ هدفَ الحوارِ.

وتزامنًا مع عمليةِ التحديدِ من الطرفِ الأولِ، فإن على الطرفِ الآخرِ أنْ يُنصتَ ولا يُقاطعَ أمواجَ الأفكارِ من التدفّقِ، وهذا ما يُعرفُ بالإنصاتِ، والمعروف لا يُعرّف.

وحينَ ينتهِي الحديثُ الطرفيُّ فيستطيعُ الطرفُ الآخرُ طلبَ توضيحاتٍ عن القولِ الآنفِ، أو انتقادَه أو التأكيدَ على ما جاءَ فيهِ من حيثِ فهمِه، وهذا ما يُدعى **بالتغذيةِ الراجعةِ**.

وهكذَا تستمرُ العملياتُ المحوريةُ السابقةُ الذكرِ لحينَ انتهاءِ الحديثِ، فيا لحُسنَ هذا الحديثِ ويا لِعظمَ فائدتهِ التي نفتقدُهَا.

هذا الحديثُ عمليةُ تواصلٍ فقطْ، هوَ حوارٌ وفهمٌ فقطْ. ليسَ هناكَ في الختامِ منتصرٌ وغالبٌ كما يظنُّ البعضُ.

الحديثُ هو تناقلُ الأفكارِ بين العقولِ، وهوَ ثاني أرقَى العلميّاتِ الإنسانيةِ بعدَ التفكيرِ وهو ناتِجُهُ، يخرجُ منهُ - أي الحوارِ - كلُّ طرفٍ مُشاركٍ بفائدةٍ وأفكارٍ جديدةٍ اكتسبَها من الطرفِ الآخرِ، وهذا هوَ زُبدةُ الحديثِ.

عَقْلانِيَّةُ

الله هو الخالقُ وحدُه، وكلُّ ما سواهُ مخلوقٌ. وللخَلقِ عوالمُ تُعدّ، ومنهَا: عالم الجنّ، الإنس، الملائكة، الحيوان، النبات وعالم البحار..الخ، وتشتركُ كل هذه العوالمُ بأنَّها مخلوقةٌ، ويتمايزُ عالمَان فقطْ بالتكليفِ، وهمَا عالمُ الإنسِ وعالم الجنِّ، قالَ تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}.

والعبادةُ هيَ إفرادُ الله بالتوحيدِ، ونقيضُها الشركُ. فالعبادةُ هي الغايةُ من خلقِ المُكلَّفينَ من الإنسِ والجنِّ، ومعنى التكليفُ؛ أي المُحاسبةُ بالأعمالِ والجزاءِ عليها. فكلُّ ما يُخلقُ فهو يُخلق لعملٍ، ولله في ذلكَ الحكمةُ البالغةُ، إلا أنّ الحقَ ميّزَ الإنسانَ وشرّفهُ بالعقلِ، والعَقلُ هو مناطُ التكليفِ، أي علّتُه والطريقُ إليهِ، والتكليفُ هو الأمانةُ التي حملهَا الإنسانُ، كما قالَ سبحانهُ وتعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}.

وهكذَا اقترنَ العقلُ في الخلقِ بالتكليفِ، فالخلائقُ سوى الإنسِ والجنِّ لا تعقلُ، فهي غير مكلّفةٍ، ولا تُحاسبُ على أعمالِها، وهي أصلًا لا تستطيعُ أن تتفكرَّ في أعمالِها، ومآلِها، وجزائِها، ولا تهتدي إلى ذلكَ سبيلًا.

والعقلُ بذلكَ هو الموصلُ - باستخدامهِ في التفكّرِ - إلى طريقِ الله

تعالى، ومعرفةُ خالقهِ الذي أبدعَهُ وأوجدهُ وصورّهُ ورزقهُ، وبسطَ له الأرضَ وحباهُ هذا الموجودَ فيه وهو العقلُ.

فاللهُ أوجدَ العقلَ في الإنسانِ وأتاحَ للإنسانِ أن يصلَ إلى معرفتهِ عن طريق العقلِ، قال الحقُّ عزَّ وجلَ: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}.

فبهذا العقلِ وهو من بليغِ نعمِ الله، تميّزَ الإنسانُ، فأرشدهُ اللهُ بهِ إلى الاستدلالِ والاقترانِ والتفكرِ، فيعلمُ المخلوقُ أنَّ لهُ خالقًا رازقًا موجِدًا واحدًا صمدًا قادرًا مريدًا.

وبعدُ فإن معرفةَ اللهِ هي البِذرةُ، ومعرفةُ العبادةِ هي الوسيلةُ، ومعرفةُ الآخرةِ هي الغايةُ المُنتهى. فهذا طريقُ الله واضحٌ ومُمهدٌ، وسلوكُ هذا الطريقَ يقتضي التصديقَ بأمورٍ ثلاثةٍ: الأمورِ العقليّةِ، والأمورِ الحسيّةِ، والأمورِ الغيبيةِ.

فالأولُ يهتدي لها العقلُ، ولا يُجاوزهُ في ذلكَ، أيْ يهتدي إلى الله وإلى طريقِه عن طريقِ المخلوقاتِ والمعجزاتِ، ولا يتجاوزُ بحدودِ عقلهِ للتفكّرِ في الخالقِ ذاتِه، أو في أسمائِه وصفاتهِ وأفعالهِ وحكمتهِ، فالعقلُ مخلوقٌ لا يُتوصّلُ إلى الخالقِ عن طريقهِ، وهذا هو حدّهُ في عالمِ الغيبِ.

ثمَّ أنَّ اللهَ يُرسلُ الرسلَ مبشّرينَ ومنذرينَ، وينيرُ على أيديهمُ الخلقَ بشريعتهِ والتي هي الوسيلةُ إلى عبادةِ الله، وهذه الوسيلةُ – الشريعة – لا مجالَ فيها للعقلِ والابتداعِ، وإنما تُعلَمُ عن طريقِ الاتباعِ للرسلِ

ورسالاتِهم، فنصدقُ ما جاؤوا بهِ عن طريقِ النقلِ السمعيِّ وهذا من خواصِّ الإحساسِ وأشدِّه صدقًا، حيثُ أن الخبرَ الصادقَ المنقولَ إلينا بالتواترِ يؤدي للعلمِ اليقينيِّ، وهو أعلى مراتبُ العلمِ، وخيرٌ من الإحساسِ المباشرِ عن طريقِ الحواسِ، والتي تتعرضُ للخداعِ بطرقٍ عديدةٍ يستخدمها السحرةُ والدجّالونُ والمُتلاعبونَ بالعقولِ، وهذا ليس مجالَ البسطِ.

فاستفدْنا من المحسوساتِ على التصديقِ بعالمِ الغيبِ، التي أخبرَ بها الرسلُ وجاءتْ بها الكتبُ، فعلمنَا أن هناكَ حياةً بعد الموتِ، وأن هُناكَ جزاءً على العملِ، ويعقبهُ عقابٌ أو ثوابٌ، فهذه الأمورِ الغيبيةِ لا مجالَ للعقلِ فيها.

خُلقَ الإنسانُ ضعيفًا، ظلومًا جهولًا، فاللبيبُ منّا من عرِفَ قدرهُ، واستبانَ مكانهُ، وحدودَ علمِه، والمُستكبرُ الذي اعتدَى بضعفهِ واستكبرَ وأبى، وشابَه بذلكَ عدوَّ الله إبليسَ لعنهُ اللهُ، فهوَ أولُ من احتجَّ بعقلهِ على حكمةِ الله، فقال {أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ}، وظنّ بقياسهِ المَعتلِ الفاسدِ وتكبرَّ وتجاوزَ، وما يزالُ المتكبرينَ يستعْلونَ بعقولِهم القاصرةِ على أحكامِ الله وتدبيرِه، وقضائهِ العادلِ في خلقهِ حتى يحقَّ القولُ. {قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ}.

فافهمْ يا عبدَ الله، أنكَ لن تجاوزَ بعقلكَ حدودَ الخَلقِ، فهذا العقلِ وُجد لمعرفةِ ما ينفعُ العبدَ في دينهِ ودنياهُ من شأنهِ كلّهِ، ولا يُسألُ عن شأنِ الله، {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}.

وقالَ عليه الصلاةُ والسلامُ: «تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ الله، ولا تَفَكَّرُوا فِي الله».

فهذَا من تمامِ قدرة الله وعلوّهِ على خلقِه، فلا يُسألُ فيما يأمرُ ويحكمُ ويشرعُ، والعبدُ المخلوقُ يُسألُ عن طاعتهِ لأمرِ الله، والعملِ بأحكامهِ، واتباعِ شريعتِه، ولهُ في ذلك إدراكُ تمامِ العبوديّةِ والخَضوعِ لله، والاهتداءِ إلى طَريقهِ في اتباعِ شريعته المُرسلةِ إلَى رسُلهِ مبلغينَ ومُنذرَينَ، فيُدرِكُ خلقَه فيما خُلقَ، وعملَهُ فيما يُصرفُ، ومآلهُ فيمَا يُساقُ.

مُذَكَّرَةُ الْمَوْتِ

مُذَكرةُ الموتِ هوَ عملٌ فنيٌّ من اليابانِ، طُرِحَ مسلسلًا كرتونيًا تلفزيونيًا، وبالطبعِ مترافقًا مع كتبِ «المانجَا» [1] التي تسبقُ بالعادةِ الإنتاجَ التلفزيونيَّ بفترةٍ طويلةٍ.

هذَا المسلسلُ أثارَ ضجّةً كبيرةً فِي كافةِ أنحاءِ العالمِ، تميزُّهُ في أشياءٍ كثيرةٍ قدْ لا أفهمهَا، ولكنَّ الشيءَ الذي جعلنِي أنضمُ إلى ثُلّةِ المعجبيَن بهذا المسلسلِ هوَ فكرتهُ المُبتكرةُ وفلسفتهُ.

العديدُ من النّاسِ سوفَ يستهزؤنَ بكَ إذا ذكرتَ لهمْ أنَّكَ تتابعُ «رسومًا متحركةً» أو بالاسمِ المتعارفِ عليهِ (الأنمي)، سيرمونكَ بالتفاهةِ وعدمِ النضوجِ، هذهِ الاتّهاماتُ ما هيَ إلا تسطيحٌ، وهذهِ العقولُ التي تنظرُ لهذهِ المنتجاتِ – والتي تكونُ متعددةً ولفئاتٍ مختلفةٍ كالأفلامِ السينمائيةِ تمامًا – هذهِ العقولُ سطحيّةٌ وجبانةٌ لأنَّها لا تجرّبُ الشيءَ حتى تقيّمهُ بلْ تراهُ مِن بعيدٍ جدًا وتحكمُ عليهِ بسرعةٍ.

لنعدْ إلى مُذكرةِ الموتِ، كما ذكرتُ فإنَّ الفكرةَ الأصيلةَ الرئيسيةَ حولَ

(1) كتب المانجا هي كتب رسومية تكون هي الأساس في العمل الفنّي المتحرك، حيث يصدر الكاتب وبالتعاون مع الرسام مجموعة من الحلقات وتُنشر على شكل سلسلة من الكتب. يميل بعض الناس لقراءتها عوضًا عن مشاهدة الرسوم المتحركة تلفزيونيًا، حيث أن هذه الكتب تُصدر أولًا ثم يُبنى عليها العمل التلفزيوني بعد فترة طويلة من الوقت.

المسلسلِ جديدةٌ، الفكرةُ فلسفيّةٌ في جوهرِهَا، تحوِي صراعًا لا يُعرفُ فيهِ من هوَ الطرفُ الخيّرُ ومنِ الطرفُ الشريرُ، يعنِي حتى هذا الصراعَ غيرُ واضحٍ تمامًا.

فمفهومُ الخيرِ والشرِّ قد يبدو لكَ واضحًا تمامًا الآنْ، ولكن بعدَ مشاهدةِ الحلقةِ الأولَى لنْ تستطعَ الحكمَ على أفعالِ بطلِ القصةِ بالشرّيةِ أو الخيريةِ.

الفكرةُ تبدأُ في عالمِ قابضِي الأرواحِ«Shinigami» باليابانيةِ، وهوَ عالمٌ مُضجرٌ وروتينيٌّ، يعيشُ فيه قابضُ الأرواحِ حياتَهُ كالسجينِ، لا يستمتعُ بشيْءٍ ولا يشعرُ بلذةٍ. كلُّ واحدٍ منهمْ لديهِ سجلُّ الموتِ خاصتّهُ، يسجلُ فيه أسماءَ ضحاياهُ وكيفَ ستكونُ نهايةُ حياتِهمْ، هذا السجلُّ يُدعى «مذكّرةُ الموتِ»، ولكسرِ هذه الرتابةِ يقررُ أحدُ قابضِي الأرواحِ أن يُرسلَ مذكّرتهُ إلى عالمِ البشرِ ليرَ ماذا سيحدثُ إنْ وقعتْ بأيدي أحدهمْ؟

منَ العالمِ الآخرِ – البشريِّ – يلتقطُ هذهِ المذكرةَ طالبٌ في مدرستهِ الثانويّةِ، ثم تبدأُ رحلتهُ مع المذكرةِ.

في الصفحةِ الأولى من المذكرةِ توجدُ إرشاداتٌ للاستخدامِ مكتوبةً بالإنجليزيةِ، وفيها أنَّهُ كيْ تعملَ المذكرةُ وتقبضُ روحَ الشخصِ لا بدَّ منْ كتابةِ اسمِ الضحيةِ واستحضارِ صورتهِ عندَ كتابةِ اسمهِ، ثمَّ تستطيعُ كتابةَ سببِ الموتِ وكيفَ سيحدثُ بالتفصيلِ، فإن لمْ تكتبِ السببَ؛ عندهَا سيموتُ الشخصُ بنوبةٍ قلبيةٍ. القوانينُ ليستْ بهذهِ البساطةِ فالأمرُ أكثرَ تعقيدًا ومتعةً.

فكرةُ كتابةِ اسمِ الشخصِ في مذكرةِ الموتِ مع استحضارِ صورتهِ في الذاكرةِ أثارتْ فيّ تساؤلًا غريبًا، بعيدًا عن موضوعِ العملِ الفنيِّ المبنيِّ على خيالِ الإنسانِ الواسعِ، هناكَ فكرةٌ أخرَى تجري بطريقةٍ مشابهةٍ ربمّا، لا أدري كيفَ تعملُ حقيقةً، أظنَّ أنَّ أغلبَ القراءِ يعرفُ عنْ ماذا أتحدثُ، الموضوعُ هو الحسدُ أو العينُ.

الحسدُ والعينُ ظاهرتانِ حقيقيتانِ مُثبتتانِ بالكتابِ والسنةِ، وهنا فرقٌ بينهمَا. الحسدُ هو قصدُ الإيذاءِ لشخصٍ على نعمةٍ أنعمهَا اللهُ عليهِ، فترى شخصًا وافرَ المالِ فتحسدُهُ على مالهِ، أو ترى شخصًا جميلَ المظهرِ، فتحسدهُ على مظهرهِ.

والحسدُ له أقسامٌ منهَا: تمنّي النعمةَ لكَ وذهابَها عن صاحبِهَا، ومنهُ تمنّي زوالَ النعمةِ عن صاحبهَا دونَ طلبهَا وهو الأقبحُ والأشرُّ.

أما العينُ، فإنَّهُ الإعجابُ بنعمةٍ أو فضلٍ أنعمه اللهُ على صاحبهِ، من غيرِ تمنّي إيذائهِ أو زوالِ النعمةِ عنهُ، والعينُ تكونُ عن حُسنِ نيّةٍ، ولكنهَا تضرُّ صاحبَ النعمةِ من العائنِ إذا لُم يُبرّكْ لهُ نعمتهُ، كما جاءَ في الحديثِ المشهورِ عن العينِ الذي أصابتْ صحابيًا كانَ يغتسلُ [1].

(1) أخرج الإمام أحمد (15550) ومالك (1811) والنسائي وابن حبان وصححه الألباني في المشكاة (4562) عن سهل بن حنيف أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج وسار معه نحو مكة حتى إذا كانوا بشعب الخرار (اسم موضع) من الجحفة اغتسل سهل بن حنيف وكان رجلا أبيض حسن الجسم والجلد فنظر إليه عامر بن ربيعة أحد بني عدي بن كعب وهو يغتسل فقال: ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأة، فلبط سهل، فأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقيل: يا رسول الله، هل لك في سهل والله ما يرفع رأسه، قال : هل تتهمون فيه من أحد؟ قالوا: نظر إليه عامر بن ربيعة، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عامرا فتغيظ عليه، وقال: علام يقتل أحدكم أخاه، هلا إذا رأيت ما يعجبك برَّكت، ثم قال له: اغتسل له، فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخلة إزاره في قدح ثم صب ذلك الماء عليه يصبه رجل على رأسه وظهره من خلفه ثم يكفأ القدح وراءه، ففعل به ذلك، فراح سهل

موضوعُ الحسدِ من المواضيعِ التي يُضخمهَا الناسُ ويُسقطونهَا على حالاتٍ لا تتضمنهَا، لأنَّ الجهلَ بالشيءِ يجعلهُ أكثرَ تعميمًا وشموليةً، كذلكَ التلبّسُ والمسُّ من الموضوعاتِ المُثبتةِ سمعًا والممكنةِ عقلًا لكنَّ الناسَ بينَ تفريطٍ فيها وإفراطٍ في تعميمِ الحالاتِ عليهَا.

يتحدثُ العلماءُ عن الحسدِ ويذكرونَ أنهَا سهامٌ تخرجُ من النفسِ الخبيثةِ فتصيبُ صاحبَ النعمةِ، وهناكَ آثارٌ في السنةِ الصحيحةِ تُبيّنُ كيفَ يتعالجُ المحسودُ منَ المرضِ وكيفيةِ الوقايةِ من الحسدِ، لكنَّ الناحيةَ التي لا تُطرحُ بشكلٍ متعمّقٍ هي كيفيةُ حدوثِ هذا الحسدِ؟ وما هيَ شروطُ حدوثهِ؟

لا شكَّ أن هُناكَ أمورًا غيبيةً ليستْ محلَّ الاجتهادِ من العلماءِ فضلًا عنْ غيرهم، لهذا فلا يُمكنُ الجزمُ والبحثُ في كيفيةِ حدوثِ الحسدِ، لكنْ هُناكَ أسئلةٌ دخلتْ عقليَ وجعلتهُ يتساءلُ بعدَ كلِّ هذهِ المقدماتِ.

فهلْ يُشترطُ لحدوثِ الحسدِ أنْ يعرفَ الحاسدُ اسمَ الشخصِ أو صورتهِ كيْ تُصيبَهُ سهامهُ؟

هل يلزمُ لوقوعِ الحسدِ وجودَ وسطٍ مادّيٍ والتقاءً مباشرًا بينَ الطرفينِ الحاسدِ والمحسودِ، أم يُمكنُ وقوعُ الحسدِ معَ تباعدِ المسافاتِ، كأنْ ترَى مقطعَ فيديو أوْ صورةً لشخصٍ ذي نعمةٍ فتحسدهُ ويُصابُ هوُ بالحسدِ؟

هذهِ أسئلةٌ غريبةٌ ربمَا لا تستحقُ البحثَ، ولكنّهَا تستحقُ التفكيرَ قليلًا.

مع الناس ليس به بأس.

أَنَا عُنْصِرِيٌّ

فِي الحقيقةِ، أشعرُ بلذةٍ خاصةٍ في نفسي حينَمَا أسمعُ منْ ينعتنِي بالعنصريةِ، ولا يستجرئُ على هذَا النعتِ إلّا المقرّبينَ منّي فكريًا.

أما لماذاَ ألتذُّ؟ لأني أجدُ من يفهمني بُعمقِي وصراحتِي، عندمَا أكونُ على السجيّةِ. أعلمُ أنَّ الكثيرَ يستنكرُ العنصريةَ فهيَ مفهومٌ سيءُ الدلالةِ، ولكنّي كبرتُ وعلمتُ أن السوءَ لا يكونُ بالكلماتِ والأحرفِ، وإنّمَا في ذاتِ القائلِ أو في طريقةِ استخدامهِ للكلمةِ.

العُنصريّةُ في المفهومِ الرائجِ عندَ الناسِ تعني تمييزَ فئةٍ قليلةٍ عن جماعةٍ كبيرةٍ بامتيازاتٍ خاصةٍ، لا لشيءٍ إلّا لغرضِ التكبّرِ والتحقيرِ من شأنِ الآخرينَ. فنحنُ عندمَا ننعتُ هتلرَ بالعنصريِّ، ننعتهُ لأنَّهُ ميّزَ الجنسَ الجرمانيَّ عن الأجناسِ الأخرَى في ألمانيَا خاصةً، وأعطاهُم صفاتَ القوةِّ والذكاءِ والعبقريةِ والجموحِ والإنتاجِ المفيدِ للبشريةِ.

وهذا إنْ دلَّ على تعجرفٍ إلا أنّهُ يدلُ أيضًا على عزةٍ ورؤيةٍ وهدفٍ قويٍ مُباحٍ وطنيًا، لنهوضِ ألمانيا دولةً عظمى في أوروبا بعد سقطاتِهَا المتواليةِ، ونخرِ عظامِ الجسدِ الألمانيِّ منَ السوسِ اليهوديِّ [1].

(1) هذا ما ذكره هتلر وعقد له فصلاً كاملاً في كتابه «كفاحي»، ونظّر فيه ما سمّاه (الدولة العنصرية)، راجع الكتاب المذكور للاستزادة.

ولا ينفكُّ العالمُ أجمعُ عن التصرّفِ العنصريِّ الخاطئِ واقرأْ عن ذلكِ في تاريخِ نشأةِ الدولِ الكُبرى مثلَ الولاياتِ المتحدةِ، حيثُ لم يكنْ هناكَ من ذنبٍ للمستوطنِ الأمريكيّ الأصلِي سُوى أنّهُ هنديٌّ أحمرٌ ويختلفُ عن الأبيضِ الساميِّ المحتلِّ، وهكذا أبادَوهمْ كما فعلَ هتلَر باليهودِ الذي أبقى بعضًا منهم لنعلمَ سوءَ خصالِهم، بينما بقيَ الهنودُ الحُمرُ لنعلمَ خسّةَ الأوروبيِّ الأبيضِ المتحضّرِ الذي يزعمُ بناءَ الحضارةِ.

ولنعلمْ أنَّ الحضارةَ لا تصنعُ إنسانًا واعيًا، وإنّما هذا هوَ دورُ الثقافةِ، فكمْ من مجتمعاتٍ متخلفةٍ حضاريًا بالمعنَى المعاصرِ، تنتجُ الكثيرَ من الثقافةِ والفنِّ بشكلٍ لا ينتجهُ مجتمعٌ حضاريٌّ متطورٌ زعمًا.

بناءً على ما سبقَ ذكرهُ من النماذجِ السيئةِ للتصرفّاتِ البشريّةِ وجرائِمِ الحربِ، غدتِ العنصريّةُ في عقولِ الناسِ صفةً لأشخاصٍ أو مفهومًا فكريًّا يدلُ على شيءٍ سيءٍ وممقوتٍ، واحتقارٍ للآخرِ، وخلقٍ للعداواتِ وغيرِهَا، إلا أنَّ هذا التصورَ نحوَ المفهومِ برأيي يُجانبُ الصوابَ، ويخالفُ المنطقَ الاستدلاليَّ والوظيفيَّ للعقلِ.

فإنْ كانتِ العنصريةُ تقتضِي تمييزَ مجموعةٍ عن أخرى، فهي في ذاتِ العمليةِ تقتضي أيضًا تجميعَ العديدِ من الأفرادِ تحتَ مجموعةٍ واحدةٍ وذلكَ لاشتراكِهِمْ بخصائصَ معينةٍ.

فمنْ خواصِّ العقلِ الوظيفيةِ الأساسيةِ التجميعُ والتفريقُ، كالعينِ التي لا تَرى إلا صورًا منفردةً وبقدرةِ القادرِ يترجمُهَا العقلُ إلى حركةٍ

تعكسُ مفهومنَا عن الحياةِ [1].

فهلْ تجميعُ فئاتٍ معينةٍ من الناسِ تشتركُ في خصائصَ محددةٍ وواضحةٍ تحتَ إطارِ التمييزِ والتعريفِ أمرٌ سيءٌ؟

هذه العنصريةُ لا ينفكُّ البشريُ عنها سواءً وعَى ذلكَ أم لم يعِهْ، فهوَ يجمّعُ ويوحّدُ ويصنّفُ العناصرَ والأشخاصَ من حولهِ وحتى أقربَ الناسِ إليهِ، تصنيفاتٍ تُسهلُ لهُ التعاملَ معهمْ وفهمهمْ واتخاذَ رداتِ الفعلِ المناسبةِ لكلِّ صنفٍ.

ففي أسرتِه يتمايزُ الأبوانُ عن غيرِهِمَا، والأخوةُ يتمايزونَ عن الأخواتِ، والأعمامُ يتمايزونَ عن الخالاتِ، وهكذا في دائرةِ العلاقاتِ الأوسعِ، هناكَ دائرةُ الأصدقاءِ، ودائرةُ المعارفِ، ودائرةُ العملِ وغيرهَا.

وفي المجالاتِ العلميّةِ، يأتي التقسيمُ والتصنيفُ ليكونَ ضرورةً للدارسينَ والباحثينَ، ففي الكيمياءِ تُصنفُ العناصرُ إلى نشطةٍ وخاملةٍ، غازيةٍ وأخرى سائلةٍ حسبَ طبيعتِهَا. وفي علمِ الاجتماعِ تتمايزُ الطبقاتُ المجتمعيةُ في شتَّى العصورِ، فطبقةُ الملوكِ والأمراءِ، ثم طبقةُ العلماءِ والوزراءِ، ثمَّ طبقةُ الجندِ ثمَّ طبقةُ العاملينَ، وهكذا.

فكيفَ نوفّقُ إذنْ بين هذينِ المعنييْنِ المتابينَينِ أحدهما جيدٌ ويطابقُ عملَ العقلِ، والآخرُ سيءٌ؟

(1) إن العين لا ترى مقاطع متصلة بل هي تعمل مثل الكاميرا عندما تلتقط مقطعَ فيديو، فيتكون المقطع من أجزاء متلاحقة من الأطُر (Frames)، عدد هذه الأطر في الثانية تتناسب طرديًا مع جودة الفيديو.

لعلنَا نُلاحظُ أنَّ السوءَ كلَّ السوءِ يكونُ في التصرفاتِ الخاطئةِ وليسَ في الافتراضاتِ أو الاستعمالاتِ النظريةِ والوصفيةِ، فكلُّ تصرفٍ خاطئٍ منبوذٌ، سواءً كانَ عنصريًا أو لم يكنْ، بينما الفطرةُ تقتضي منّا المعاملةَ المختلفةَ لعمومِ الناسِّ باختلافهمْ.

ففي العملِ، ستعاملُ مديركَ بطريقةٍ تختلفُ عن تعاملكَ مع زميلك الذي بجانبكَ، وفي المنزلِ، ستُعاملُ أباكَ وأمّكَ بطريقةٍ مباينةٍ عن تعاملكَ مع إخوتكَ، ولن تعاملَ غريبًا لقيتهُ في الشارعِ كما تعاملُ أقربَ أصدقائكَ.

وبما أنَّ الدينَ المعاملةُ، فقدْ وُضِعَ النظامُ الأكملُ للبشريةِ في التعاملِ مع بعضها، ونستخلصُ منهُ أنَّ هناك معاملاتٍ مختلفةٍ بين أهلِ الإسلامِ وأهلِ الذمّةِ وأهلِ العداوةِ المقاتلينَ.

فالمؤمنونَ رحماءُ بينهم، وأشدّاءُ على الكفّارِ. المؤمنونَ بعضهمْ أولياءُ بعضٍ، بينمَا لا يصحُّ أن يتخذَ المؤمنونَ الكافرينَ أولياءَ، بل يُعاملونهمْ بالقسطِ والإحسانِ. ومن حقِّ المؤمنِ على المؤمنِ ردُّ السلامِ، وتشميتُ العاطسِ، وزيارةُ المريضِ، واتّباعُ جنازتهِ، وليس ذلكَ إلا للمؤمنِ.

إذن، خلاصةُ الكلامِ، لا يجدرُ الإنكارَ أو الاستنكارَ إذا كُنّا عنصريينَ في طبائعنَا وسلوكنَا إذا كانتِ الأخيرةُ من الحقِّ الذي يجبُ أنْ يُتّبعَ، ولا مانعَ أن توصفَ بالعنصريِّ في آرائكَ وأفكاركَ إذا لم تُتبعهَا بالسلوكِ الخاطئِ المؤدّي للظلمِ أو الاستحقارِ أو التكبّرِ على الآخرينَ.

الزَّيْفُ الأمْنِيُّ

أتحدّثُ عن الزيْفِ الأمنيِّ، حيثُ أنَّ مفهومَ الأمنِ المنتشرَ عندَ أغلبِ الناسِ وغيرِ المتخصصينَ هوَ أمنٌ لا يحملُ من حقيقتِه إلا تشابُهَ الاسمِ فقطْ، فهوَ يحملُ جزءًا مُشوّهًا مما يُفترضُ أن يكونَ أمنًا بمعنى الكلمةِ.

يقفزُ إلى وعيِ الناس حولَ مفهومِ الأمنِ ذلكَ الرجلُ الذي تجدهُ جالسًا أو جوّالًا عند بوابةِ المنشآتِ والفنادقِ والأماكنِ العامّةِ ويرتدي زياً شبهَ عسكريٍ يوحي بالقوةِ والأمانِ!

ومفهومُ الأمنِ الالكترونيِّ ينحصرُ أيضًا في عقولٍ كثيرةٍ حولَ تنصيبِ أحدَ البرامجِ المضادةِ لـ «لفايروساتِ» على الحواسيبِ، وعمليةِ استخدامِ كلماتِ المرورِ في البرامجِ والتطبيقاتِ، وكِلا هذينِ العملينِ يقومُ بهمَا الناسُ بطريقةٍ خاطئةٍ تحولهُ من وسيلةِ أمانٍ إلى ثَغرةٍ مفتوحةٍ.

فأقولُ أنَّ الأمنَ الحقيقيَّ ليسَ ظاهرةً أو سلوكًا معينًا يُتخذُ، أو إجراءً يُنفّذُ فحسبُ، بلْ هوَ مفهومٌ عقليٌّ يقومُ حولَ تخطي الثوابتِ والشكِّ في عملِ كلِّ شيءٍ بصورةٍ كاملةٍ.

والعقلُ الأمنيُّ هوَ الذي ينشغلُ دائمًا في إيجادِ الخللِ في الأنساقِ، والثغراتِ في الأنظمةِ سواءً المعلوماتيةِ أو الفيزيائيةِ.

حقيقةُ الأمنِ الزائفِ تتمثلُ في الاعتمادِ على العنصرِ البشريِّ أكثرَ من غيرِهِ، والذي يتخصصُ في الأمنِ يعلمُ تمامَ العلمِ أنَّ أضعفَ حلقةٍ في النظامِ الأمنيِّ هو الإنسانُ، وأسهلُ طريقةٍ لاختراقِ أيِّ نظامٍ هوَ في اختراقِ الإنسانِ نفسِهِ.

سأضربُ مثالًا: تخيّلْ أن بنكًا رائدًا شديدَ التنظيمِ ويستوردُ أحدثَ التقنياتِ الأمنيةِ، ويُدعّمُ نظامَهُ المعلوماتيُّ حائطٌ ناريٌّ فائقُ الحمايةِ، ولا يقبلُ دخولَ المستخدمِ إلا من منطقةٍ محددةٍ داخلَ النطاقِ المحليِّ للانترانتْ.

كيفَ يُمكنُ اختراقُ هذا البنك؟

قدْ يفكرُ البعضَ بالاختراقِ التقنيّ، وذلكَ ممكنٌ بالاعتمادِ على طرقٍ معقدةٍ وأجهزةٍ مُكلفةٍ وشهورٍ مكثفةٍ مَن التخطيطِ والتنفيذِ، ولكنْ دائمًا الحلُ الأكثرُ سذاجةٍ هو الأسهلُ والمُختارُ، تستطيعُ اختراقَ أيِّ نظامٍ من أضعفِ حلقاته، وهوَ الإنسانُ.

فاختراقُ هذا البنكِ المُحصّنِ تقنيًا يمكنُ أن يتمَّ عبرَ تجنيدِ شخصٍ في وظيفةٍ متدرّبٍ أو متعاونٍ في قسمِ تكنولوجيا المعلوماتِ، عندها تضمنُ التحركَ بسهولةٍ داخلَ البنكِ وفي أشدِّ الأقسامِ حساسيةٍ، وبسهولةٍ بالغةٍ تستطيعُ دخولَ أحدِ الحواسيبِ من داخلِ شبكةِ البنكِ أو الاتصالَ مع الشبكةِ الداخليةِ للبنكِ من حاسوبكَ الخاصِّ، وهكذَا اخترقتَ النظامَ الأمنيَّ للبنكِ.

الاختراقُ الالكترونيُّ لا يتطلبُ شديدَ ذكاءٍ، ولا تقنيةً عاليةً

متطورةً، أصبحَ يتطلبُ ذكاءً اجتماعيًا وكما يُسمى عندَ العارفينَ «الهندسةُ الاجتماعيةُ»، وهوَ الذكاءُ الذي يعني استغلالَ الظروفِ الاجتماعيةِ والإنسانيةِ الفرديةِ أو الجماعيةِ للأشخاصِ ضمنَ سلسلةِ النظامِ الأمنيِّ، وغالبًا ما يكونُ الشخصُ الأضعفُ يمتلكُ صلاحيّاتٍ أكبرَ من حجمهِ يسْهلُ استغلالهَا للإطاحةِ بالنظامِ، والمثالُ الواقعيُّ الذي نستطيعُ فهمهُ جيدًا، هو مسؤولُ الإعلامِ في وسائلِ الإعلامِ الحديثِ.

هذا الشخصُ في غالبِ المؤسساتِ لا يفهمُ كثيرًا أو لا شيءَ أصلًا عن أمنِ المعلوماتِ، وكلمةُ السرِّ في الحساباتِ الرسميةِ لا تكونُ بالقوّةِ الموصَى بها، لكنْ ليستْ هُنا النقطةَ، التقنيةُ الأكثرُ انتشارًا للاختراقِ الالكترونيِّ وخاصةً الحساباتِ الاجتماعيةِ تكمنُ في «الاصطيادِ».

فإذَا أردتَ مثلًا أن تسرقَ كلمةَ السرِّ لأحدِ الحساباتِ الرسميةِ، يكفي أنْ تُرسلَ بريدًا الكترونيًا يشابهُ البريدَ الرسميَّ من مقدمِ الخدمةِ وليكنْ «تويترْ»، وبهِ رابطٌ خارجيٌّ يفتحُ صفحةَ الاصطيادِ التي يكونُ تصميمُهَا مماثلًا لصفحةِ تأكيدِ اسمِ المستخدمِ وكلمةِ المرورِ.

تذْكرُ في الرسالةِ أنَّ حسابكَ يواجهُ بعضَ المشاكلِ في التوثيقِ أو منْ بابِ الحمايةِ الدوريةِ يُرجى تغييرَ كلمةِ المرورِ خاصّتكَ عبرَ الرابطِ أدناه، فيبدأُ المستخدمُ الواهنُ أمنيًا بإدخالِ صلاحيّاتِ الدخولِ، وهكذا تكونُ استوليتَ على كلمةِ المرورِ بكلِّ سهولةٍ.

ولا يَخفَى عليكَ أنَّ معرفةَ عنوانَ البريدِ الالكترونيِّ للحسابِ أو أحدِ القائمينِ عليهِ ضروريٌّ من أجلِ نجاحِ الاصطيادِ.

هذا المثالُ فقطْ لتوضيحِ عمليةِ الاختراقِ بشكلٍ سهلٍ، وهناكَ طرقٌ أخرى قدْ تكونُ أكثرَ سهولةٍ أو تعقيدٍ، ولكنَّ العاملَ المشتركَ فيها أنَّهَا لا تحتاجُ لتقنيةٍ معقدةٍ ولا لعقلٍ خارقَ الذكاءِ والعبقريةِ.

ولتعلمْ أيها القارئُ أنَّ أكثرَ جهةٍ مُحصنةٍ أمنيًا وتختصُ بالتجسسِ على الناس ومراقبةِ العالمِ أجمعَ بلا مبالغةٍ، قدْ تمَّ اختراقُهَا، كيف؟

من الداخلِ.

هذهِ الواقعةُ حقيقيةٌ، وتُشابه بشكلٍ ما ظروفَ البنكِ الذي ذكرتُه سابقًا – وهوَ واقعٌ أيضًا – حيثُ أُعطيَ موظفٌ مُتعاقدٌ –أي من طرفٍ خارجيٍّ – صلاحياتٍ أكثرَ مما يجبُ، فبدلًا من أنْ يعملَ على المشروعِ الموكّل بهِ، استطاعَ الحصولَ على صلاحياتِ مشاريعَ سريّةٍ وملفاتٍ لا يجبُ أن يطلّعَ عليها بأيِّ شكلٍ من الأشكالِ.

ما الذي فعلهُ هذا العبقريُّ؟

وقعَ في صراعٍ خطيرٍ، بين حمايةِ هذه الأسرارِ التي تحفظُ بلادَهُ والجهةَ التي يعملُ بها، وبينَ أن يكشفَهَا للعالمِ ويسيءَ لبلادِهِ وأمنِهَا القوميِّ، ولقدْ اختارَ أن يُرجّحَ كفةَ العالمِ وحمايةَ خصوصياتهمْ على أمنِ بلادهِ وخصوصيتهَا، فنشرَ تسريباتٍ هي الأشهرُ في العصرِ الأخيرِ وقدْ أصبحَ بطلًا عالميًا يُدافعُ عن حقوقِ الناسِ البُسطاءِ أمامَ أعتىَ القُوَى التجسسيةِ – وكالةُ الأمنِ القوميِّ NSA – والعسكريةِ في الولاياتِ المتحدةِ الأمريكيةِ، هذا الشخصُ اسمهُ «**إدوارد سنودن**».

القُوَّةُ الرُّوحِيَّةُ

مَنِ الذي يخشَى اللهَ؟

قال اللهُ تعالى {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}، أيْ الذينَ يعلمونَ اللهَ حقًا همُ الذينَ يخشونَهُ، فالعلمُ باللهِ هوَ **الأصلُ الأولُ مِن أصولِ العقيدةِ**.

فمِنَ العلمِ باللهِ، أنْ نعلمَ وجودَهُ أولًا، وهَذَا العلمُ يتحققُ بالأدلةِ العقليةِ المستمدةِ منَ الشريعةِ ابتداءً، ثمَّ بالتفكّرِ والنظرِ.

الأدلةُ العقليةُ هيَ التي خاطبتِ العقولَ عبرَ مقدّماتٍ ونتائجِ برهانيةٍ صادقةٍ، أساسُهَا القرآنُ الكريمُ، ثمَّ ما جاءتْ بهِ السنةُ الصحيحةُ، وهذهِ الأدلةُ سهلةُ الفهمِ، واقعيةٌ ومباشرةٌ، يقينيةٌ ولا تقبلُ الشكَّ عندَ العقلاءِ، فالحمد لله الذي بيّنَ ذلك وفصّلهُ أحسنَ تفصيلٍ {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}.

قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ: «فإنَّ القرآنَ اشتملَ علَى كلِّ علمٍ نافعٍ مِنْ خبرِ ما سبقَ، وعلمِ مَا سيأتِي، وحكمِ كلِّ حلالٍ وحرامٍ، وما النَّاسُ إليهِ محتاجونَ فِي أمرِ دنياهُمْ ودينِهِم، ومعاشِهِمْ ومعادِهِمْ».

لا يتحققُ العلمُ بوجودِ اللهِ دونَ العلمِ بأسمائِه وصفاتِه الوصفيةِ

والفعليةِ، وهذا هوَ **الأصلُ الثاني في العقيدةِ**.

وتلكَ الأصولُ تُستمدُّ من مصادرِها المعتبرةِ وليسَتْ محلُ نظرٍ أو اجتهادٍ، حيثُ أنهَا من الأمورِ الغيبيةِ، وهيَ التي نتَلقاهَا من الطريقِ العقليِّ السماعيِّ فقطْ، وقد بيّنتْ لنا الشريعةُ أسماءَ الله وصفاتِه الكريمةِ، وعرفنَا بالنظرِ والتجربةِ مآلَ تلكَ الصفاتِ في خلقهِ وأَقدارهِ، ونعمهِ الواسعةِ على الناسِ وعلى المسلمينَ.

فإذَا علمَ الإنسانُ أنَّ لهُ خالقًا بهذهِ الصفاتِ وهذهِ العظمةِ، وأنّهُ منَّ عليهِ بأَنَّهُ خلقَهُ وكرّمهُ وسخرَ لهُ مافي السماواتِ ومافي الأرضِ والبحرَ والجبالَ والمطرَ والرياحَ، شعرَ بحاجّةٍ روحيةٍ فطريةٍ للامتنانِ والشكرِ العظيمِ الذي لنْ يبلغَهُ، ولكنّهُ سيحاولُ الوصولَ إليهِ ليملأَ **الفراغَ الروحيَّ** الذي يريدُ أنْ يسمُو إلَى خالقِهِ ويتواصلُ معهُ ويسألُهُ كيفَ يشكرُ لهُ هذهِ النعمَ، وكيفَ ينالُ رضَا هذا الخالقِ العظيمِ وأنْ يديمَ عليهِ فضلَهُ.

هذهِ **الحاجةُ الروحيةُ** لم يتركَهَا اللهُ لمخلوقاتهِ تائهةً من غيرِ إشباعٍ، فمنْ كمالهِ ورحمتِه الواسعةِ وحكمتهِ البالغةِ أنِ اصطفَى من خلقِه رسلًا مبشرينَ ومنذرينَ، دالّينَ علَى طريقِ الله، مرشدينَ عقولَ الحيارَى والزاهدينِ، فأنزلوا الشرائعَ والعباداتَ من عندِ الله، وأدُّوا مهامَ الرسالةِ على أكملِ الوجوهِ كلٌ إلى قومهِ، فهناكَ من هدَى اللهُ ومنْ حقّتْ عليهِ الضلالةُ، وكلٌّ ميسّرٌ لما خُلقَ لهُ.

فمنْ هداهُ اللهُ، واتبّعَ الهُدَى الذي جاءَتْ بهِ الرسلُ، وعبدَ اللهَ كمَا شرَعَ، فقدْ أصابَ **حاجتَهُ الروحيّةَ**، وعلمَ أنَّ خالقهُ اختارَهُ وفضّلهُ

بهذه الهدايةِ وهذا التعبّدِ.

ومنْ مشَى في طريقِ الله علَى هدى من الله، وعبَدهُ كما يريدُ طلبًا لرضوانهِ وحمدًا لنعمهِ، فإنمَا وَصلَ لذلكَ عن طرَيقِ الله وبفضلٍ من الله، وهذهِ الهدايةُ للعبادةِ نعمةٌ تستحقُّ الحمدَ، وهذا الحمدُ فضلٌ من اللهَ يستحقُّ الحمدَ أيضًا وهكذَا لا يبلغُ الحمدُ منتهاهُ.

الحمدُ لله الذي بّينَ لنا ذلكَ كلَهُ، وهدَانَا إلى صراطهِ المستقيم، وبيّن لناَ طرقَ عبادتهَ وشكرهِ، كلُّ ذلكَ بدلائلَ يقينيةٍ آمنّا بها بقلوبِنَا الَتِي نعقِلُ بهَا، وعلِمنَاها فصِرنَا من العارفينَ، وكفَّ عنا طرقَ الضلالةِ والبدعَ التي تاهَ فيها الكثيرُ من العابدينَ على غيرِ هُدًى من اللهِ ربِّ العالمينَ.

حُرِّيَّةٌ مَقْلُوبَةٌ

ابتلُيتِ الأمةُ بمفهومِ الحريّةِ المزعومةِ، فصارَ التغنّيُ بها مفخرةً ورُقيًا في كلِّ نقاشٍ، وتخلّلَ مبادئَ أغلبِ الناسِ الخالينَ أصلًا من أيةِ مبادئَ ساميةٍ، فصاروا يُنادونَ بها ويُقاتلونَ من أجلهاَ، والأكثرُ إيلامًا وبليّةً – كما يُقال شر البلية ما يُضحك – أنَّ القتالَ من أجلها صارَ جهادًا!، والموتَ في سبيلها صارَ استشهادًا!

والأصلُ أنهُ لا يصحُّ جهادًا إلا في سبيلِ الله، ومعنى الجهادِ في سبيلِ الله أنْ يكونَ المرادُ من القتالِ وهدفهُ – كلمةُ اللهِ هي العليا، وليسَ من أجلِ وطنٍ ولا أرضٍ ولا حريّةٍ مزعومةٍ.

ولا يُقالُ فلان شهيدٌ أبدًا في هذا الوقتِ؛ حيثُ أنَّ **الشهادةَ هي ضمانُ الجنةِ وهذا لا يكونُ إلا بشهادةِ اللهِ عز وجلَّ وشهادةَ رسولِه** – صلى الله عليه وسلم – وهذا غيرُ ممكنٍ الآنَ، وقدْ بوّبَ البخاريُّ في صحيحهِ بابًا بعنوانِ «لا يُقالُ فلانٌ شهيدٌ»، وإن كانَ الميْتُ شهيدًا فنحسبهُ كذلكَ ولا يضرّهُ عدم مناداتهِ بالشهيدِ ولا ينفعهُ.

إنَّ الحريّةَ بمفهومِها المشوّهُ دخيلةٌ علينا، ما جاءَتنا إلا منِ العقولِ المُنحلةِ من مفاهيمِ الإسلامِ الحنيفِ، والمغموسةِ في هُوّة التغريبِ والانفتاحِ اللاديني واللاأخلاقي.

فالحريّةُ في هذا المفهومِ صارتْ أقوى من كلّ مبدئٍ قويمٍ، وتجاوزتِ الحدِّ في الثقافةِ والدينِ، فهوَ مُطلقٌ من غير تقييدٍ لا في السلوكياتِ ولا الاعتقاداتِ ولا المعاملاتِ الإنسانيةِ.

ولو تأمّلَ العاقلُ بفكرهِ السليمِ، لعلمَ أن هذا المفهومَ لن يجرَّ وراءَهُ إلا الرذائلَ والمُنكراتِ، ويهدِمُ كل بناءٍ أُسّسَ على الحقِ، ولشابهَ الحرُّ في تصنيفهِ الحيوانَ مشابهةً بيّنةً.

فالحيوانُ حر بتصرفاتهِ، ولا يعتقدُ بشيءٍ، ويأكلُ ويشربُ من غيرِ حسابٍ، فهو غيرُ مُكلفٍ لا بعقلٍ ولا أمانةٍ.

والمُتأمّلُ في حالِ المجتمعاتِ التي بُذرتْ فيها حبوبُ الحريةِ القذِرةِ في أرضهم الخرِبة، ثم غُرست فِيها غرسًا، ورأَى حصادَهُم الكائنُ الآنَ لعلِمَ مناطَ الحريةِ ومُرادَها الأخيرِ، فتلكَ الشعوبُ ليست لها عقيدةٌ، ولا تحدّهمُ أخلاقيّاتٌ، فصاروا يفعلونَ ما يشاؤونَ، ويعتقدونَ بما يشاؤونَ، ويُناكحونَ من يشاؤونَ وما يشاؤونَ، ليلًا ونهارًا، علانيةً وجهارًا، حتى بلغُوا مبلغًا لم تصلْ إليهِ أشنعُ الأممِ في التاريخِ، وإنهُ لحقٌّ أن يحِلَّ عليهمْ الغضبُ واللعناتُ، وأن تُخسفَ بهم الأرضُ والسماواتُ.

ثمَّ بعدَ هذا كلّهِ، تنتقلُ لنا هذه الدناءةُ الهاويةُ، فتغسلُ عقولَ أبنائنَا وبناتنَا، وساعدهمْ في هذا غُربتهمُ عن الدينِ، واعتناقُ كلّ ما يأتي من الغربِ لغةً وتعليمًا في البدايةِ، ثم موضةً ولباسًا، وفي النهايةِ ماذا؟ عقيدةً وسلوكًا ورذيلةً.

إنَّ الحريّةَ حقٌ مشروعٌ في ديننا القيّمِ الحنيفِ، فالإنسانُ خلقَه

اللهُ فقدّرهُ أحسنَ تقديرٍ، وقوّمهُ خيرَ تقويمٍ، وجعلَ لهُ الاختيارَ، ما بينَ الإيمانِ أو الكفرِ، الاتباعِ أو الابتداعِ، الطاعاتِ أو المعاصي، وكلٌّ محاسبٌ على اختياراتهِ.

إلا أن الحريةَ الحقّةَ هي في الأمورِ المُباحةِ من غير المحرماتِ أو المنهياتِ؛ فلكَ أن تأكلَ وتشربَ ما تشاءُ في حدودِ الطيبِ، وتلبسَ ما تشاءُ في حدود العُرفِ والسترِ، وتفعلَ ما تشاءُ في حقّ جسدكَ وعقلكَ ودينكَ.

العبوديّةُ لله وحدهُ، هي أسمى معانِي الحريّةِ؛ فهي حريّةٌ من كل الأمورِ الحقيرةِ، وهي سموٌّ عن كلِّ ما نهاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ ورسولُه من الخبائثِ، ولا معنى أجملَ من أن تكونَ عبدًا لله وحدهُ، مُوحدًا، مخلصًا دينكَ للهَ، طائعًا مُسلِّمًا ذليلًا لخالقكَ الأعلَى.

وعلى النقيضِ من ذلكَ، فمن تبنَّى من المسلمينَ مفهومَ الحريةِ الغريبِ، فقدْ حكَمَ على نفسهِ عبوديّةَ الغربِ، وعظُمَتْ في نفسهِ كلُّ أفعالهمْ، وشعرَ بمنّهمْ وتفضّلهمْ عليهِ في الاختراعاتِ والعلومِ والمعارفِ، وهي التي في الأصلِ ما وصلتْ إليهم إلا من الإسلامِ والمسلمينَ.

وليعلَمْ من تُسوّل لهُ نفسهُ فعلَ المعاصيَ والمُنكراتِ بحجةِ الحريّةِ، بأنه على خطرٍ عظيمٍ، وعلى جُرفِ الهاويةِ، فلا يصدرُ هذا القولَ والفعلَ إلا ممنْ عظُمَ هواهُ في نفسهِ، وعاندَ وتكبّرَ عن عبوديّةِ اللهِ، فيُخشى عليهِ من الكُفرِ.

وبالإضافةِ إلى هذَا كلّهِ، فيعلُو صوتُ دعاةُ الحريّةِ بأن ندعَ الخلقَ وشأنَهُم، وأن يفعلُوا ما يشاؤون دونَ أن نُنكرَ عليهم ذلكَ، وما يريدونَ

بهذَا إلا هدمَ أصلٍ ثابتٍ وراسخٍ من أصولِ الإسلامِ، وهو النصيحةُ، والإعراضُ عن خيرِ الأعمالِ وهو الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المُنكرِ.

ومما لا يشكُّ فيه ذو لُبٍّ، أنَّ المعصيةَ من الفردِ ستضرّهُ ويتعدَّى ضررُها غيرَه، ولا سيّما إن جاهرَ بذلكَ غيرَ مكترثٍ، فهؤلاءِ المُجاهرينَ بالمعاصي لن يعفوَ اللهُ عنهم – من غير توبةٍ – ولا يستحقونَ السترَ لاستخفافهم بعفوِ اللهِ، وعلى هذا يجوزُ أن تُذكرَ مساوئهُم علنًا كما جاهرُوا بها علنًا.

فقدْ قالَ المولى جلّ وعلا: {لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا} على قراءةِ فتحِ (الظاءِ) في ظلم.

وقالَ حبيبنا عليهِ الصلاةُ والسلامُ: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ».

وإنْ تُركَ هؤلاءُ بحريّاتهمِ المزعومةِ فسيهدمونَ المجتمعَ وينخرونَ فيه حتَّى يقعَ في بحرِ ظُلماتهمْ وضلالاتهمْ، فحريٌّ بالمؤمنِ أن يُنكرَ المعاصيَ ويُنكرَ على أصحابِهَا سرًا وعلنًا إن جاهَروا بهَا، والنصيحةُ بالسرِّ خيرٌ، ولا تدعْ الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكرِ أبدًا فيحلُ علينا غضبٌ من الله، قالَ تَعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}.

وخيرُ مصداقٍ لمآلِ الحريةِ الزائفِ وضررهَا على المجتمعِ حديثُ الرسولِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ: «مَثَلُ القائمِ على حدودِ الله والواقعِ فيهَا كمثلِ قومٍ استهمُوا على سفينةٍ، فأصابَ بعضهم أعلاَهَا، وأصابَ بعضُهُم أسفلَها، فقالُوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبِنا خرقًا فاستقينَا منهُ ولمْ نُؤذِ

من فوقنَا، فإنْ تركوهمُ وما أرادوا هلكُوا جميعًا، وإن أخذُوا على أيدِيهم نجوُا جميعًا».

شَيْءٌ حَوْلَ اقْرَأْ

كثيرٌ من الأخوةِ يستدلُ بالآيةِ الأولى في القرآنِ من سورةِ العلقِ على أهميةِ القراءةِ، وإني كُلَما تأملتُ أكثرَ في السورةِ لمْ أجدْ شيئًا مِنَ القراءةِ فِيهَا، ولا يَقبلُ عقليَ التسليمَ بأنَّ القراءةَ هي ذلكَ الشيءُ العظيمُ الذي يستأهلُ أنْ يكونَ أولَ أمرٍ منَ الوحيِ الإلهيِّ! وفي نفسِ الوقتِ أنَّ الموحَى إليهِ هوَ الرسولُ الأميُّ الذِي لا يعرفُ القراءةَ.

وحيثُ أنهُ دارَ حديثٌ كثيرٌ حولَ هذا الموضوعِ، فقمتُ أخيرًا لآتي بإجابةٍ شافيةٍ بالرجوعِ إلى التفاسيرِ المشهورةِ حولَ هذهِ الآيةِ الأولَى من الوحيِ.

كلنَا نعلمُ بأنَّ هذهِ الآياتِ نَزلتْ في بادئِ الوحيِ، وفِي غارِ حراءَ عندما كانَ الرسولُ – صلى اللهُ عليهِ وسلمَ – يتعبّدُ، فنزلَ عليهِ جبريلُ بصورتِهِ الحقيقيةِ، فقالَ لهُ على وجهِ التنبيهِ: (اقرأْ)، أيْ انتبهْ واقرأْ ما سيُتلَى عليكَ، فردَّ عليهِ الرسولُ – صلى اللهُ عليهِ وسلمَ – :«ما أنَا بقارئٍ»، أيْ لستُ بالذِي يجيدُ القراءةَ لأقرأَ، وتكررَ هذا الحوارُ ثلاثَ مراتٍ، حَتى تَلى عليهِ الآياتِ المعروفةِ فكانتْ أولَ النبوءةِ، وفِي قولٍ آخرٍ، النبوءةِ والرسالةِ [1].

(1) حيثُ أنَّ أول ما أنزلَ من القرآنِ على الإطلاقِ هيَ الخمسُ آياتٍ الأولُ من سورةِ العلقِ، ثم فتَرَ الوحيَ، ثم أُنزلَت أولُ خمسُ آياتٍ من سورةِ المدّثرِ. فقال العلماءُ أنَّ الرسولَ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ أُنبئ باقرأْ وأُرسِلَ بالمدثّرِ.

ولكنْ لماذَا أمرَ الرسولُ – صلى اللهُ عليهِ وسلمَ – بالقراءةِ، معَ أنهُ لا يقرأُ ولا يكتبُ، والشاهدُ هوَ أنَّ المقصودَ ليستِ القراءةُ من كتابٍ، ولكنْ بالاستماعِ والترديدِ، ثمَّ تبليغَ هذا المسموعَ بقراءتِهِ على الناسِ باسمِ اللهِ، أيْ من عندِ اللهِ وذلكَ هوَ أولُ النبوءةِ، وفِي قولِهِ {الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}، يُستدلُ على عظمِ هذا المخلوقِ وهوَ «القلمُ».

حيث ذُكِرَ في الحديثِ الصحيحِ عن عبادةَ بنِ الصامتِ – رضيَ اللهُ عنهُ – أنَّ النبيَّ – صلى اللهُ عليهِ وسلمَ – قالَ: «أولُ ما خلقَ اللهُ القلمَ ، فقالَ لهُ: اكتبْ، قالَ: ربِّ، وماذا أكتبُ؟ قالَ: اكتبْ مقاديرَ كلِّ شيءٍ حتى تقومَ الساعةُ».

ويقسمُ اللهُ بِهِ تعظيمًا في سورة القلم {ن ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}؛ كلُّ ذلكَ تعظيمًا لأهميةِ القلمِ في تثبيتِ العلمِ ونقلِ العلومِ وتبليغِ الرسائلِ والدعوةِ وغيرِهِ.

فهذهِ الآياتُ الأُوَلُ نزلتْ على النبيِّ الأميِّ الذِي لا يقرأُ ولا يكتبُ، وذلكَ إثباتًا للمعجزةِ وأجدرَ بالتصديقِ، وفيها أهميةُ القلمِ وأنّها وسيلةٌ للتعلمِ، وهيَ ليستِ الوحيدةُ.

وموضوعُ القراءةِ لهُ منَ الأهميةِ الكبيرةِ لِما فيهِ منْ تلقي العلمِ والاطّلاعِ والفهمِ، ولا يخفَى ذلكَ على كلِّ لبيبٍ، والأصلُ في موضوعِ العلمِ والتعلّمِ هو الحفظُ والتبليغُ، فطريقةُ وصولِ القرآنِ والأحاديثِ المتواترةِ وخبرِ الآحادِ مما تُثبتُ العلمَ يقينًا وصلتنَا تبليغًا واستماعًا وحفظًا.

ولم تدخلْ الكتابةُ بشكلهَا الرائجِ إلا في الدولةِ العباسيةِ ومن بيتِ

الحكمةِ تُرجمتِ العلومُ ودُوّنتْ في كتبٍ، ومن ثمَّ كان تحصيلُ الحاصلِ من ذلكَ القراءةُ وتداولُ الكتبِ، ونقلُ المعارفِ.

قدْ نُعاني فِي وقتنَا الحاليِّ من ضعفِ القراءةِ عمومًا، ولكنّا نُعاني أيضًا بادئَ ذي بدئٍ من شُحِّ الكتابةِ، فقلةُ الكتبِ والمفكرينَ والتدوينِ والترجمةِ؛ كلُّ ذلكَ يفضِي لبقاءِ الأمةِ في مستوًى منحدرٍ من الثقافةِ.

ولا شكَّ أن مفتاحَ تطورِ الثقافةِ ورقيِّ الإنسانِ سيكونُ كما بدأَ بالقراءةِ والاطّلاعِ وترجمةِ العلومِ الحديثةِ، وإزالةِ تلكَ الحواجزِ الإسمنتيةِ والحَجْرِ الفكريِّ بما يُسمَى الرقابةُ، بعدَ ذلكَ يمكننَا التفاؤلَ بمستقبلٍ أجملٍ، وإنسانٍ أرقَى، لعلنَا نستعيدُ إنسانيتنَا وثقافتنَا، وتجرِي رُحَى الحضارةِ تِبَاعًا.

لا تَتَفَلْسَفْ

هلْ قرأتَ كتابًا في الفلسفةِ؟ أعلمُ أنّكَ لمْ تفعلْ، لأنَّ الفلسفةَ مجالٌ للمعقدينَ الذين يترفعونَ عنْ عامةِ الناسِ ويتحدثونَ في مواضيعَ لا يفهمُ كنهَها غيرهُمْ، فهمْ في النهايةِ يتفلسفونَ، وأنتَ لا تحبُّ التفلسفَ أليسَ كذلكَ؟.

لكنْ فقطْ هذهِ المرةَ لنْ أتفلسفَ، لأنَّ البحثَ عن الحقائقِ ودراسةِ الإنسانِ والموجوداتِ منْ حولهِ، كلُّ ذلكَ تفلسفٌ لا نفقهُ فيهِ، وحتّى دراسةُ الفلسفةِ منَ الباحثِ الجادِّ يُعدُ في الفلسفةِ فلسفةٌ، يعنِي أن تدرسَ الفلسفةَ هي فلسفةٌ في حدِّ ذاتهَا، أعلمُ أنَّ الجملةَ السابقةَ عسيرةٌ على الهضمِ لكنهَا الحقيقةُ.

عودٌ على بدءٍ، فمجردُ سماعِكَ لكلمةِ «فلسفة» سيرتبطُ – من دونِ وعيٍ منكَ – بمكانٍ محددٍ وهوَ اليونانِ أو بلادِ الإغريقِ، وبوقتٍ قديمٍ وهوَ قبلَ الميلادِ، وستذكرُ أسماءً تعرفها ولا تعرفُ شخوصهَا تمامًا مثلَ سقراطَ وأفلاطونَ وأرسطوَ، وهمْ بالنسبةِ للفلسفةِ كمَا هو أحمدُ والبخاريُّ ومسلمٌ في الحديثِ، سلسلةٌ ذهبيةٌ منَ العلماءِ أخذُوا العلمَ آخرَهُمْ عنْ سابقهِمْ، وفي الحقيقةِ أنَّ الفلسفةَ نشأتْ قبلَ تلكَ الأسماءِ الإغريقيّةِ، ولكنْ ليسَ هذا درسًا في التاريخِ.

كانَ الدافعُ وراءَ تفلسفِ أولِّ الفلاسفةِ، ولا أعلمُ منْ هوَ تحديدًا، أنْ يعلمَ ماهيةَ الحياةِ منْ حولهِ، الطبيعةَ، والكائناتِ، وأولَى منْ ذلكَ كلّه الإنسانُ نفسُه، فما هوَ الإنسانُ وممَّ يتكونُ؟ هلْ هوَ مادةٌ فقطْ كالجماداتِ أمْ لهُ مكوناتٌ أخرى؟

وكيفَ يختلفُ الإنسانُ عن غيرهِ منَ الحيواناتِ - أيِ الكائناتِ الحيةِ - وما هيَ المادةُ الأساسيةُ للكونِ وكيفَ بدأَ ومتى سينتهي؟ كلُّ هذهِ الأسئلةِ كانتْ مطلبًا للفلاسفةِ، وكلُّ فيلسوفٍ تأمّلَ ودرسَ وكوّنَ إجابةً تختلفُ عن غيرهِ.

الفلاسفةُ كانوا علماءَ الطبيعةِ، **في البدءِ كانتِ الفلسفةُ، لمْ تكنْ ثمّةَ علومٌ طبيعيةٌ أو إنسانيةٌ كما نعرفهَا الآنَ**، لمْ يكنْ شيءٌ اسمهُ الفيزياءُ أو الكيمياءُ أو الفلكُ أو الطبُّ، أوْ علمُ الاجتماعِ أو علمُ النفسِ والتاريخُ والسياسةُ، كانَ الفيلسوفُ ينشغلُ بذلكَ كلهُ بالوسائلِ المحدودةِ التي يمتلكهَا، وكانَ يبني منهجَهُ على استنباطاتِهِ العقليّةِ، منْ مقدماتٍ متماسكةٍ ثم نتائجَ تُبنى على المقدماتِ بطريقةٍ سليمةٍ.

كانتِ الفلسفةُ تحاولُ أخذَ دورِ هدايةِ الناسِ وتبيينَ الحقائقِ لهمْ، فهيَ حيثُ ظهرتْ، كانتِ الخرافاتُ هي منْ تفسّرُ الظواهرَ الطبيعيةَ والموجوداتِ، فتعددتِ الآلهةُ بحسبِ كلِّ موجودٍ، فإلهٌ للمطرِ، وإلهٌ للرياحِ، وإلهٌ للأرضِ، وللجبلِ وللبحرِ.

لمْ تكنْ تلكَ التفسيراتُ الإنسانيةُ تُرضِي العقولَ، فانسلخَ الفلاسفةُ منها وبدَؤا بالتأملِ في أنفسهِمْ وفيمَا هوَ حولهمْ، فبحثوا في الطبيعةِ،

فصاروا علماءَ الطبيعةِ، وبحثوا في الإنسانِ، فصاروا علماءَ الإنسانياتِ، وبحثوا في الوجودِ والكونِ، فصاروا علماءَ الفلكِ والوجوديةِ.

وهكذَا كلّمَا أثارتِ الفلسفةُ التساؤلاتِ في مجالاتٍ جديدةٍ، انشقَّ فرعٌ عنِ الفلسفةِ يدرسُ ذلكَ المجالَ، فانتشرتْ فروعُ الفلسفةِ، فكانَ الفلاسفةُ علماءً يبحثونَ في الواقعِ، وفلاسفةٌ يبحثونَ في أسبابِ ذلكَ الواقعِ، وكيفَ يجبُ أنْ يكونَ؟ وفلاسفةٌ يبحثونَ في كيفَ نفكّرُ في الواقعِ والوجودِ، وهذَا هوَ دورُنَا.

هَلْ أَنْتَ غَنِيٌّ؟

مفهومُ الغِنَى يُتصورُ في أذهانِ الناسِ على النقيضِ من حقيقتِهِ المعرفيّةِ واللغويةِ، فعندمَا يُشارُ لشخصٍ بصفةِ الغِنى؛ تتكونُ في المخيلةِ صورةَ رجلٍ يعيشُ في قصرٍ فاخرٍ، ويركبُ تلكَ «المرسيديس» الفارهةَ المُطفأةَ بالسوادِ، وهوَ الذي إنْ شاءَ سافرَ في أيِّ وقتٍ يريدهُ، لأنَّهُ بالطبعِ إمَّا أن يكونَ مديرًا «كبيرًا»، أو لديهِ عملُهُ الخاصُّ الذي يُدرُّ عليه الذهبَ، فلا يتحكمُ في قراراتهِ ومتعتِه الشخصيةِ أحدٌ.

هذهِ النظرةُ أو هذا المفهومُ عن الغِنى هو الذي أقولُ عنهُ مضادًا للحقيقةِ اللغويةِ، فالغِنى يكونُ عن الشيءِ وليسَ بهِ، فغِنى الرجلِ لا يكونُ بالمالِ، بلْ غِناهُ الحقيقيُّ عن المالِ، أيْ عن حاجتهِ للمالِ.

فليسَ الغَنيُّ منْ يملكُ المالَ الكثيرَ الذي يفيضُ عن حاجتهِ، بلْ معناهُ أنَّهُ لا ينقصهُ المالُ كي يوفِّي حاجتَهُ ومتطلباتِهِ.

وبلغةِ الرياضياتِ السهلةِ، فالغَنيُّ هو الذي تكونُ لديهِ معادلةَ: المالُ أكبرُ من أو يساوِي (>=) الحاجةَ.

قدْ يبدُو للقارئِ بأنَّ هذا الشخصَ فقيرٌ، لأنَّهُ إذا أرادَ أن يتمتعَ قليلًا فلنْ يملكَ المالَ لذلكَ، فهوَ ليسَ غنيًا بلْ يحتاجُ للمالِ، وهُنا بالضبطِ تكمنُ

العلّةُ التي أدّتْ لهذا الفهمِ المقلوبِ، فهذا التمتّعُ والترفّهُ ليسَ حاجةً في نفسِهِ، بلْ هوَ زائدٌ لا ينظرُ إليهِ معظمُ الناسِ.

فذلكَ الشخصُ الذي يقودُ سيارةً متواضعةً مقارنةً بتلكَ الفارهةِ التي ستأتي على بالكَ ليسَ بحاجةٍ للسيارةِ الفارهةِ، وهوَ الذي يعيشُ في منزلٍ بهِ أربعةَ غرفٍ تكفي أسرتَهُ، ليسَ بحاجةٍ لذلكَ المنزلِ الواسعِ الذي يحوِي حديقةً خضراءَ للعبِ الكرةِ، وحوضَ سباحةٍ وغرفًا إضافيةً لا يستهلِكها أحدٌ.

لكنْ ماذا إنْ سايرنَا المفهومَ المنتشرَ للنظرِ إلى أينَ سيأخذُنا مفهومُ الغِنى المرتبطُ بالثراءِ والتمتّعِ؟

فإذَا كنتَ تعيشُ على دخلٍ يفي حاجتكَ، ولنقلْ عشرةَ آلافِ ريالٍ شهريًا، تُنفقُ ثلثهُ على إيجارِ المنزلِ، وثلثهُ على المصاريفِ الأخرى، وتُبقي الثلثَ في حسابِ التوفيرِ.

أنتَ الآنَ لديكَ منزلٌ تأوي إليهِ، وسيارةٌ جديدةٌ حسبَ إمكانياتكَ، وتعيشُ مكتفيًا عنِ الناسِ.

ماذا إنْ جاءَ تحوّلٌ مغايرٌ في حياتكَ، وتلقيتَ عرضًا وظيفيًا مغريًا بضعفيْ راتبكَ السابقِ، ماذا سيحدثُ؟

سيكونُ دخلكَ الآنَ ثلاثونَ ألفًا، كنتَ تصرفُ حوالي ثلاثةَ آلافٍ على الإيجارِ ومثلَها على مصاريفَ أخرَى، لكنَّ الآنَ سيتبقى لديكَ ما يزيدُ عن عشرونَ ألفًا في حسابِ التوفيرِ، وفي غضونِ أشهرٍ قليلةٍ ستكونُ قدْ

وفّرتَ مئةَ ألفٍ.

ماذا سينتجُ عن ذلكَ؟

معروفٌ في فنِّ الاقتصادِ أنّهُ كلمَا زادَ الأمنُ الماليُّ مع بقاءِ المدخولِ سيحفّزُ الاستهلاكَ، أيْ سيقومُ الشخصُ بصرفِ المزيدِ من المالِ، وهذا سيؤدّي بطبيعةِ الحالِ لتغيّرٍ في صرفيّاتِ المعيشةِ الطبيعيةِ.

فبَدلًا من تلكَ السيارةِ التي كانتْ تكلّفُ خمسينَ ألفًا، ستبتاعُ سيارةً أخرَى بالتقسيطِ المريحِ بمئةِ ألفٍ، والصرفيّاتُ الشهريةُ التي كانتْ تقاربُ الثلاثةَ آلافٍ ستبلغُ الستةَ أو العشرةَ آلافٍ، ربّما ستشعرُ بتحسّنٍ وراحةٍ أكبرَ في وضعكَ المعيشيِّ الجديدِ، ستكونُ قدْ بلغتَ مستوى آخرَ يفوقُ أقرانكَ السابقينَ.

لكنْ هلْ كلُّ هذا التغييرِ زادكَ غنًى أم صرْفًا؟

حاجاتُكَ بقيتْ كما هيَ، فأنتَ كنتَ غنيًا أصلًا وأصبحتَ ذا دخلٍ أكبرَ، والذي تغيّرَ فقطْ هوَ طريقةُ عيشكَ وكميّةُ صرفكَ، وهذا بالضبطِ ما يعوِّلُ عليهِ الناسُ في الغِنى.

كلّما صرفَ الشخصُ قيمةً أكبرَ على حاجياتهِ نعتوهُ بأنّهُ أكثرَ غنى وثراءً، بينما جميعنَا نصرفُ على نفسِ الحاجياتِ، ولدينَا ما يكفينَا، ونعيشُ في غنًى عنِ الحاجة للمالِ والآخرينَ.

وهذا هو الغِنى الذي لنْ يتغيّرَ وهو المفهومُ الصحيحُ للكلمةِ، وما عدَى ذلكَ فنستطيعُ أن نطلقَ على الأشخاصِ الأكثرَ صرفًا منّا بأنهُمْ أكثرَ

ثراءٍ، أو يعيشونَ في مستوًى يتطلبُ صرفًا أكبرَ وحسبْ ولا يفضُلُونَ عنَّا بشيءٍ.

كمَا أنَّ أغلبَ المتصفينَ بالغِنى في العالمِ لا يكفّونَ عن اللحاقِ خلفَ المالِ والمشاريعِ والأعمالِ المرتبطينَ بهَا كأنَّ الحياةَ ستدومُ لهمْ للأبدِ.

ومعلومٌ أنَّ الإنسانَ يغلبُ عليهِ الطمعُ، فكلّما أتاهُ شيئًا رغبَ بالذي أعلى منهُ، ولا يصل في هذا الجشع إلى نهايةٍ، حتى يتوفاهُ الموتُ أو يُصابُ بخيبةٍ اقتصاديةٍ تجعلهُ ينهارُ، ويفقدُ ما جمعَهُ من ثرواتٍ في حياتهِ، أو يُصابُ بمرضٍ يجعلهُ يستنزفُ مالَهُ من أجلِ صحتّهِ.

الخُلاصةُ هيَ:

«ليسَ الغِنى عن كثرةِ العرضِ، ولكنَّ الغِنى غِنى النفسِ».

شَيْءٌ مِنَ الرُّوحِ

إنّنَا فِي هذهِ الحياةِ أرواحٌ مُجسّدةٌ، وكلُّ روحٍ جميلةٍ إنما تكونُ في جسدٍ جميلٍ، فالجسدُ للروحِ بمثابةِ الوعاءِ الشفافِ يُظهِرُ ما بداخلهِ من حُسنٍ أو قبحٍ.

وهذهِ الأرواحُ خلقهَا اللهُ منذ زمنٍ سحيقٍ في القدم، واقرأْ إنّ شئتَ قولَ الله عزَّ وجلَّ: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ}.

وحقيقٌ على أنْ نقولَ أنَّ الأرواحَ جنودٌ مجنّدةٌ ما تعارفَ منها إئتلفَ، ومَا تنافرَ منها اختلفَ، ونحنُ في مقابلتِنا الأولى لشخصٍ ما، سنشعرُ بشعورٍ غريبٍ لا نعلمُ كُنهَهُ، يقولُ لنا بصوتٍ خفيٍّ: لنْ تحبَّ هذا الشخصَ، إنهُ شخصٌ سيءٌ، أو يقولُ: هذا الشخصُ يبدو لطيفًا، وكأنّنِي أعرفهُ منذُ زمنٍ، يبدو أننا سننسَجمُ جيدًا.

هذا الشعورُ المبدئيُّ يُسمّى في علمِ النفسِ «**الانطباعَ الأوليّ**»، كثيرٌ ما يُحددُ علاقاتنا بالأشخاصِ، وإن أَهملناهُ وغفلناهُ، سيأتِي اليومَ الذي تتكشّفُ فيه الخفايَا وتتبيّن فيه المزايَا، أو تتجلَّى عندكَ الرزايَا، فتعلمُ حينئذٍ

معدنَ الشخصِ.

وهذَا الأمرُ يقودُنَا لموضوعٍ بالغِ الأهميةِ، ويُظهِرُ لنا حكمةَ الشرعِ في **وجوبِ النظرةِ الشرعيةِ** للخاطبَيْنِ، فلا تكفِي الدلائلُ الظنيةُ من أخبارٍ ونقولاتٍ في الحكمِ على شخصٍ ما بأنّهُ صالحٌ أو طالحٌ.

وبالطبعِ لا تكفِي تلكَ النظرةُ التي تكونُ عادةً مليئةً بالخجلِ، ولكنها تلكَ الفرصةُ السانحةُ للأرواحِ لأنْ تتلاَقى، وأنْ تُبدي كلًا منها شيئًا من القَبُولِ أوِ الرفضِ للروحِ الأخرى.

وفي حديثِنا عنِ الموتِ شجونٌ، وكان لا بُدَّ بدايةً أنْ نتحدثَّ عنِ المُثبتِ، وهوَ أصلُ الحياةِ – الروحُ – كيْ نتحدثَ لاحقًا عن انعدامِها أو بمعنى أصحٍ عن انتقالِ الروحِ من هذهِ الحياةِ إلى مقامٍ آخرٍ.

ولكنْ يأتي السؤالُ: هلِ الروحُ تنتقلُ أم تنعدمُ؟ هل تفنى أم تكونُ خالدةً؟ البحثُ عن كنهِ الروحِ صعب للغايةِ، ويُمكنُ للقارئِ أن يطّلعَ على كتابِ الروحِ للإمامِ الفذِّ «ابن قيّمِ الجوزيةِ» وهوَ أصحُّ وأوسعُ ما كُتبَ في هذا الموضوعِ.

ولنتعرّضَ الآنْ لهذا السؤالِ الذي سأحاولُ البحثَ عن جوابهِ خلالَ تفكّري في هذا المقالِ:

لماذَا نشعرُ بذلكَ الحُزنِ، والوَحشةِ المفاجئةِ عندَ موتِ شخصٍ نعرفهُ، سواءٌ كانَ قريبًا نعاشرهُ أمْ بعيدًا فارقناهُ منذُ زمنٍ؟

مَنْ منَّا لمْ يشهدْ موتَ شخصٍ يعرفهُ، والمعرفةُ هُنا في أقلها تكونُ ذكرى

أو أكثرَ في ذاكرتنا الصُوَريةِ عن ذلكَ الشخصِ، وتتفاوتُ المعرفةُ بحكمِ الاحتكاكِ والمعاشرةِ واللقاءاتِ، وبالمجملِ حجمُ الذكرياتِ المُخزنةِ عنهُ تتناسبُ طرديًا مع كميةِ الحزنِ أو الألمِ لفراقِهِ، أو كميةِ الفراغِ الذي نشعرهُ عندَ سماعِ موتِ شخصٍ مَا.

لكنْ لماذا هذا الحزنُ؟

لكيْ يُمكنُ الإجابةُ عن هذا السؤالِ، سنحاولُ بناءً على التصورِ التاليِّ استنتاجَ فرضيةٍ:

لنتصورَ شخصًا نعرفهُ ونعاشرهُ يوميًا، ثمَّ معَ تغيّرِ ظروفِ الحياةِ ومرورِ الزمنِ تتضاءلُ اتصالاتُنَا معهُ، حتَّى يغدُو بعدَ عديدَ السنواتِ شيئًا منَ الماضي، فلا نكادُ نوقنُ هلْ هوَ في عدادِ الأحياءِ أو الأمواتِ، وفجأةً يأتينا خبرٌ بأنَّ ذلكَ الشخصَ فارقتْ روحهُ هذهِ الدنيا.

سُرعانَ ما نُصابُ بتلكَ الصعقةِ الخفيفةِ في الذاكرةِ، أو انقباضٍ في الصدرِ، أو ربمَا نُصابُ بالحزنِ والدهشةِ التي تتفاوتُ من شخصٍ لآخرٍ حسبَ طبيعتهِ ومشاعرِهِ.

لكنْ ما الذِي تغيّرَ؟ نحنُ لمْ تصلنا أخبارُه، ولا نعلمُ إنْ كانَ حيًا أو ميتًا، وفجأةً عندما نوقنُ أنهُ فارقَ هذهِ الحياةَ نشعرُ بالحزنِ عليهِ.

مردُّ ذلكَ إلى أنَّ الأرواحَ لا تهتمُ كثيرًا بالإحساساتِ الجسديةِ، فإحساسُنَا بأنَّ الشخصَ حيٌّ أو ميتٌ لم يؤثرْ، وأن تعلمَ روحُنَا وتتيقنَ أنَّ روحًا أخرى بالفعلِ فارتِ الحياةَ، هنا تتألّمُ الروحُ لفقدانِ زميلتها، وكَأنَّ

معادلةَ الأرواحِ التي نحتفظُ بِها في ذاكرتِنا قدْ نقصتْ، فاختلَّ توازنُها!

حقيقةُ أنَّ الروحَ تحزنُ لفقدانِ روحٍ أخرى من دنيا المحسوساتِ، نشعُر بهَا في دواخلِنا، تُصابُ إحساساتُنا باختلالِ التوازنِ عندَ موتِ قريبٍ بشدةٍ أكبرٍ منْ موتِ بعيدٍ جمعتنا فيهِ ذكرياتٌ.

فموتُ القريبِ بالفعلِ يُخلُّ بالتوازنِ العقليِّ للمقرّبينَ منهُ، فتختلطُ عندهُمْ إدراكاتهمُ الحسيةُ اللحظيةُ، وإدراكاتُ الذكرى والشعورِ الذي يحاولُ أن يجلبَ كلَّ ذكرَى ممكنةٍ للشخصِ ليُخادعَ الروحَ بأنَّ الشخصَ ما زالَ موجودًا معنَا.

ولكيْ يتغلّبُ الإدراكُ الواعيُ على كميةِ الذكرياتِ الهائلةِ التي يُرسلُها اللاشعورُ، يحتاجُ إلى الوقتِ، بحيثُ يجمعُ من إحساساتِهِ ما يتغلّبُ على الذكرياتِ، وحينَها يعلمُ أنَّ الحياةَ ستستمرُ بانعدامِ ذلك الشخصِ، تلكَ الروحُ ذهبتْ والنقصُ حاصلٌ، ولكنَّ الحياةَ ستستمرُّ حتمًا.

موضوعُ الموتِ هوَ حقيقةٌ كُبرى لا يشُكُّ بها أحدٌ، لاشكَّ بأنّهُ مُؤلمٌ ويثيرُ الشجونَ، ولا يشعرُ بذلكَ الألمِ والفراغِ واختلالِ التوازنِ في موتِ قريبٍ إلا منْ جرّبهُ وذاقهُ، فالموتُ كَأسٌ جميعُنَا شاربوهُ، وكلُّ من على الأرضِ فانٍ.

التَّحَيْوُنُ!

يصحُّ لنا القولَ بادئَ ذي بدءٍ، أنَّ كلَّ ما يحيا على وجهِ البسيطةِ، أو يُحلّقُ في سمائِها، أو يغوصُ في أعماقِ محيطاتِهَا، أو يتسيّدُ بلادًا من بُلدانِهَا، هو حيوانٌ اسمًا ورسمًا.

هذَا الكلامُ ليسَ فيه مماثلةَ الإنسانِ مع الحيوانِ في كلِّ شيءٍ، بلْ هوَ تشبيهٌ مِنْ وجوهٍ معينةٍ يتشاركُ فيهَا الإنسانُ معَ الحيوانِ بصفةٍ جوهريةٍ لا تنفكُّ عنهما، وهيَ الحياةُ.

ثمَّ إنَّ الإنسانَ لا ينقصُ عنِ الحيوانِ في سلوكِهِ، بلْ يزيدُ الإنسانُ على الحيوانِ فقطْ بفضلِ اللهِ وكرمِهِ الذي يتلخصُ في الأمانةِ التي حمَلَها – وهو ظلومٌ جهولٌ – وبالعقلِ؛ فالأمانةُ هي التكليفُ بالعبادةِ وهيَ غايةُ الخلقِ، وآلتهُ هو التعقّلُ.

ويا لِسُخفِ ذلكَ القولِ الذي هو على سخافتهِ يتشبّثُ به المُلحدونُ كما يتشبّثُ الغريقُ بالقشِّ، فالملحدونَ هم أغبى الخلائقِ على وجهِ الأرضِ، والحيواناتُ أرقَى منهمْ في مراتبِ المعيشةِ والفهمِ، فهمْ على الفطرةِ وكلّنْ يسبّحُ لله.

وذاكَ القولُ الذي يُدعى زورًا بنظريةِ التطورِ هو قولٌ لا شكَّ في تخلُّفِهِ،

ولا يقومُ على صحتهِ أيُّ دليلٍ، وإنما حَمِلهُ أتباعٌ وحمّلُوهُ ما لا يحْتملُ، ويأتي الآنَ من تخلَّى عن عقلهِ ويقولُ بأنَّ الإنسانَ أصلهُ قردٌ، هذَا جلُّ ما عرفهُ عن القولِ «الداروينيِ»، معَ أنَّ المقالَ يركّزُ على عمليةِ الانتخابِ الطبيعيِّ، وأنَّ الإنسانَ والقردَ لهمْ سلَفٌ مشتركٌ وليسَ الثاني سلفًا للأولِ!

علَى كلِّ حالٍ، فإنَّ البشريةَ كرمَها ربُّها – جلَّ وعلَا – عنِ الحيواناتِ الأخرى بالعقلِ، وخصَّها بالتكليفِ، وأداءِ الأمانةِ، وبيّنَ لها سُبلَ الهُدى وذللَّ لها طرقَ السيرِ، واللهُ خلقَ الناسَ مختلفينَ، وسخّرَ بعضَهُمْ لبعضٍ، لحكمةٍ بالغةٍ، وجعلَهمْ قبائِلَ لتتعَارفْ.

غيرَ أنَّ هذهِ الأخيرةَ – القبليةَّ – أصبحتْ وباءً ينخرُ في ضحاياهُ من غيرِ رحمةٍ، ويقتلُ في أصحاءِ العقولِ أنواعَ القتلِ – لعنها الله.

القبائلُ كانتْ متفرقةً أشتاتًا، يقتلُ بعضُهَا بعضًا، في عداءٍ وضيرٍ، وفي بحورٍ من الظُلماتِ والجهالاتِ، تُحقّقُ القبيلةُ انتصارهَا على جارتِها بسرقةِ بضعةٍ من الإبلِ والماشيةِ وسفكِ الدماءِ.

ثم تُعادُ هذه الحروبُ وتستمرُّ بشكلٍ متتابعٍ بين قُطعَانِ القبائلِ، والعجيبُ أنَّ هذهِ التي يعدّونَها انتصاراتٍ، أنشدُوا فيها أقبحَ قصائدِ الفخرِ والسيادةِ.

كانُوا كذلكَ، صدّقَ لهم إبليسُ ظنَّهُ، حتَّى جاءَ خيرُ البشرِ محمدٌ – صلّى اللهُ عليهِ وسلمَ – وجمعَ بينهمْ، وألّفَ بين قلوبهِمْ، وأصبحُوا عائلةً واحدةً من بعدِ شتاتٍ وعزلةٍ.

فانقلبُوا بعزةِ الإسلامِ قوّةً، بعدمَا كانُوا في عداءِ الجاهليةِ أذلّاءَ حقيرينَ، ومكّنَ لهمْ في الأرضِ ورزقهمْ من الطيباتِ وسادُوا العالمَ فِي بضعِ سنينَ.

إنَّ أقوى الغرائزِ الفطريةِ عندَ الإنسانِ ربّما ترجعُ إلى أصلهِ الحيوانيِّ – بغضِّ النظرِ عن حساسيةِ الكلمةِ عندَ بعضهِم – وهيَ غريزةُ الحياةِ، وفي روايةٍ «الجنس».

غريزةُ الجنسِ أصلٌ مهمٌ لبقاءِ الفصيلةِ الإنسانيةِ، وهيَ هدفٌ من أهدافِ هذهِ الحياةِ، ولَمَا كانَ فيها منَ الأهميةِ؛ فقدْ جاءتِ الشريعةُ بأحسنِ تنظيمٍ وأفضلِ طريقةٍ تجري بهَا مراحلُ هذا الأصلِ الغريزيِّ والغايةِ الأسمَى منهُ «التكاثر»، وهيَ طريقةُ التزاوجِ.

لا يهمُّ كلُّ ذلكَ عندَ الحيواناتِ، فالغريزةُ الحيوانيةُ تُشبعُ بشكلٍ فطريٍّ، ولكنَّهَا أيضًا تكونُ منظمةً بطريقةٍ ما، والإنسانُ بطبيعةِ الحالِ مُكرّمٌ عنِ الحيوانِ، ولكنَّ الكثيرَ منَ الإنسِ انسلخُوا من عقولهمْ وارتقائِهِم الإنسانيِّ حتَّى رجعُوا لمستوَى الحيوانِ، بلْ همْ أضلُّ.

وهؤلاءِ نبذوا الشرائعَ أساسًا، وأرجعوا تنظيمَ حياتهمُ الحيوانيةِ لغرائزهمْ، فعاشُوا كالحيواناتِ أصلًا وتطبيقًا، ولا عزاءَ في ذلكَ.

إنَّ الزوجيةَ علاقةٌ إنسانيةٌ ساميةٌ، بلْ هيَ حياةٌ أخرَى أرقى من حياةِ الفرديةِ لما تتخلّلُهَا من مشاركةٍ وبناءٍ وتطويرٍ وتنشئةٍ للنسلِ ومسؤوليات وأمورٍ عديدة لا تَخفى عنِ العارفينَ.

منَ المؤسفِ أنّهُ مع تطورِ المجتمعاتِ البشريةِ – على المفروض – يجبُ أنْ تتطورَ أساليبُ حياتِهم وعملياتِها الأساسيةِ الحيويةِ، وذلكَ بأنْ تكونَ بطريقةٍ إنسانيةٍ خالصةٍ تتبعُ القيمَ والشرائعَ السليمةَ.

ولكننا نَرى خاصةً في مجتمعاتِنا المحليةِ تخلفًا شديدًا في موضوعِ الزواجِ، فيكونُ بصورةٍ اعتياديةٍ غيرَ موضوعيةٍ، لا تتبنَّى فيهِ المواقفُ الإنسانيةُ موقفًا صارمًا، فيحدثُ خبطٌ ولصقٌ من ذكرٍ وأنثى تمَّ الاتفاقُ بينهُما من خلالِ عائلتيهما، لدرجةٍ باتتْ فيهَا القراراتُ الاستهلاكيةُ تحتاجُ لبحثٍ وتمعنٍ وتقييمٍ أكبرَ مما يحتاجُ إليهِ الزواجُ في هذهِ الأيامِ.

فهلْ يُعقلُ أن تتكونَ المجتمعاتُ وتتطورُ وهيَ تُبنى بهذَا الشكلِ السيءِ عنْ طريقِ أهمِّ عنصرٍ فيهِ وهوَ الأسرةِ؟

هلْ يُعقل أن تتشكلَ الأسرةُ من رجلٍ وامرأةٍ لا يعرفانِ عن بعضِهما شيئًا سِوى الاسمِ فقطْ، وأنهُما يتشاركانِ نفسَ القبيلةِ؟

هذهِ ليستْ دعوةٌ للزواجِ خارجَ الإطارِ الشرعيِّ عن طريقِ التعارفِ والتلاقي، بلْ هيَ مجرّدُ دعوةٍ كيْ يعودَ كلُّ شيءٍ لأصلهِ.

الزواجُ الإسلاميُّ لهُ قواعدهُ وأعرافهُ التي تتيحُ لكلٍ من الرجلِ والمرأةِ رؤيةَ بعضِهما نظرةً شرعيةً يُتاحُ فيهَا تلاقي الأرواحِ، فما تعارفَ منها ائتلفَ، وما تنافرَ منها اختلفَ.

وبعدُ، فلا يَخْلُ أيُّ عرفٍ سليمٍ لا يتعارضُ مع الشريعةِ أنْ يكونَ هو الطريقةُ المُتّبَعةُ في الزواجِ، غيرَ أنَّ المشكلةَ الحقيقيةَ في «التّحيْونِ»

هي أنْ تكونَ أعرافُ القبيلةِ هي الحاكمةُ، وإنْ خالفتِ الدينَ وأضرّتْ بالمجتمعِ.

فحتّى في هذا العصرِ، لا تسمحُ بعضُ القبائلِ من رؤيةِ الخطيبينِ ولا تعارفِهما حتّى بعدَ كتابةِ عقدِ القرانِ، أيُّ عقلٍ يقبلُ هذا وأيُّ دينٍ يرتضيهُ؟

وحتّى في هذا العصرِ، هُناكَ أزواجٌ لم يرَوْا (وجوهَ) زوجاتِهِمْ، وقدْ رأَوْا كلَّ ما أسفلَ ذلكَ، وكيفَ يُعقلُ؟ لأنّها أعرافُ القبيلةِ.

الخُلاصةُ هيَ، أنَّ القبليةَ جاهليةٌ، والتمسّكُ بحبالِها الخانقةِ هو قتلُ عمدٍ معَ سبقِ الإصرار والترصّدِ.

فلمَ تضييقُ الواسعَ، ولمَ الذُلُّ والهوانُ بعدَ عزّةِ الإسلامِ؟

كانتِ القبائلُ لا تُناكحُ أعداءَها من القبيلةِ الأخرَى، وكانتِ القبيلةُ تعيشُ في عصورٍ حجريةٍ أشبهَ بقطعانٍ من الحيواناتِ، التي لا يقربُ فيها الأسدُ من الحِمارِ إلا اعتداءً وقتلًا.

أما الآنْ، فالتمسّكُ بهذهِ القيمِ الهادمةِ هي فعلًا «حيْونةٌ» على أصولِها، فالحيواناتُ ظلّتْ كما هيَ، تعيشُ في قطعانِها، أمّا البشرُ فافتراضًا أنهُ تبعًا لـ «داروين»، وصلُوا من النموِّ والتطورِّ ما يدعهُمْ يتركونَ مثلَ هذهِ الفِعالِ.

خَدَعُوكَ فَقَالُوا تَطَوَّعْ

«مُتطوّعٌ»، «مُتطوّعةٌ»، لا بُدَّ أنكَ تقلّدتَ يومًا هذا الرداءَ الأبلجَ، وأنتَ تمشِي أو تقفُ في زهوٍّ في تلكَ القاعةِ البديعةِ الملأى بأناسٍ متشابهينَ وأنتَ تتميّزُ بينهمْ.

ربّما تساءلتَ ماذا تفعلُ وإلى منْ تتجهُ؟ ولكنْ دونَ جوابٍ، أخبروكَ أنكَ متطوّعٌ ويجبُ عليكَ الحضورَ في الوقتِ المُحدّدِ، ربّما أملُوا عليكَ بعضَ الإرشاداتِ السهلةِ، وقلتَ في نفسكَ هذا لا شيءْ، أستطيعُ أن أفعلَ أكبرَ منه بكثيرٍ.

العملُ التطوّعيُّ ظاهرةُ المجتمعِ الحديثِ، فها هُنا مؤتمرٌ يتلو مؤتمرًا، ومُلتقًى يتبع ملتقًى، وفعاليةٌ تعقبهَا فعاليةٌ، في حِراكٍ لا يكادُ يخبُو من العملِ الإعلاميِّ والحديثِ الكثيرِ، وبكلِّ تأكيدٍ العملِ التطوّعيِ.

هلْ من خطأٍ في توجيهِ الطاقاتِ الشبابيةِ في التنظيمِ والإشرافِ والعملِ اللوجستيِّ [1]؟

لا أقولُ ذلكَ، ولكنْ هلْ منَ المفيدُ فعلًا للمجتمعِ إهدار طاقاتِ

(1) العمل اللوجستي يُطلق على نوعِ العملِ الذي يتطلبُ تنفيذَ الخططِ وإمدادِ البضائعِ والموادِّ من منطقةِ الإنتاجِ إلا منطقةِ الاستهلاكِ ونَقلِهَا وتَخزينِهَا.

الشبابِ في عملٍ مدفوعِ التكاليفِ ومُحقَّقِ الأرباحِ وكلٌّ يقتسمُ قطعتُهُ منَ الكعكةِ، ثمَّ تُعطى أوراقٌ مُوقّعةٌ بساعاتِ عملٍ لشابٍّ طموحٍ، في مرحلةِ الأخذِ وليسَ العطاءِ، وفي مرحلةِ الإنتاجِ وليسَ الاستغلالِ، وفي مرحلةِ الشراكةِ البنّاءةِ وليسَ لعبُ دورًا هامشيًا لا يجني منهُ ثمرةً ولا حتّى بذرةً.

لا يظنُّ أحدٌ أنَّ الهدفَ من التطوّعِ هوَ المقابلُ الماديُّ، أبدًا، ولكنَّ العملَ التطوعّيَ بصورتهِ المشوّهةِ هذهِ يجبُ أن تُصحّحَ.

العملُ التطوّعيُّ يُفترضُ أن يكونَ من الشبابِ وفي توجيهِ طاقاتِ الشبابِ للمجتمعِ بطريقةٍ منفعيّةٍ، خاليةٍ من الماديّاتِ، فخيرٌ بالشباب أن يُتاحَ لهم المجالَ لعملِ المبادراتِ والمشاريعَ التي تُوجَّهُ للشبابِ أنفسهِم، وللمجتمعِ في تطويرِهِ ثقافيًا ومعرفيًا وفنيًا وعلميًا.

ماذا جنيْنا من المؤتمراتِ الضخمةِ، والملتقياتِ الدوريّةِ سوى الكلامِ، في بلادٍ أخرى ولا نذهبُ بعيدًا، حيثُ جيرانُنَا في الخليجِ نرى شبابُهم يعملُ بلا كللٍ، في مشاريعَ عظيمةٍ وعلى أعلى مستوًى، نرى الشبابَ في حيويتهِ وتطلعاتهِ يُقدّمُ الجهودَ الكبيرةَ في مشاريعَ إنسانيةٍ ومجتمعيةٍ وعلميةٍ، بينما يُؤسفنا ألا تصلُ إلينا هذهِ العدوَى النافعةُ.

كيفَ نرتقي بمفهومِ التطوّعِ ومِصْداقِهِ؟

على الشبابِ الواعدِ، أن يستغلَّ مرحلتَهُ الجادّةَ في أكثرِ الأعمالِ نفعًا لهُ، فهذهِ المرحلةُ لا تعودُ أبدًا، وهي الأكثرُ نبوغًا وأملًا.

وحيثُ أنْ ليسَ هُناكَ أفضلُ من المعرفةِ المتأتيّةِ من خلالِ الاطّلاعِ

والقراءةِ، المعرفةُ الناتجةُ من التجربةِ، والأوْلى من ذلكَ، المعرفةُ التي تأتي بعدَ التغلّبِ على القيودِ المجتمعيةِ الباليةِ، والتي تفرضُ علينا الصحيحَ والخطأَ من خلالِ العادةِ والمألوفِ فقطْ.

أنْ تبحثَ في نفسكَ وتعرفَ من أنتَ وماذا تريدُ عملهُ، تتعرّفُ على نقاطِ قوتّكَ ومهاراتكَ، ثم تتعرفُ على أصدقاءٍ يُشاركونكَ هذهِ الاهتماماتِ.

بتكوينِ هذه المجموعاتِ المشتركةِ، وفي ظلِّ البيئةِ الآمنةِ والمُحفّزةِ للنموِّ، سنرى حراكًا شبابيًا ملحوظًا، يقودهُ شبابٌ مُتطلّعٌ ذو اهتماماتٍ واسعةٍ، وبطموحٍ يُصارعُ الأفقَ، لا يستشرفُ المستقبلَ، بل هوَ الذي يصنعهُ.

بَائِعُ وَرَقٍ

عندمَا تتجوّلُ في أجنحةِ معرضِ الكتابِ تُواجهُ العديدَ مِنَ الوجوهِ في دورِ العارضينَ، منها غيرِ المكترثِ لأحدٍ، كأنَّ أحدَهُمْ ساقَهُ كـ «الحمارِ» ليجلسَ في مكانهِ، ومنها من يقتنصُ فريسَتَهُ من الشابّاتِ ليبيعَ عليهِنّ القصاصاتِ العاطفيّةِ حدِّ الغثيانِ.

ومنها منْ يُعرضُ عليكَ أكثرَ الكتبِ مبيعًا لأنّكَ واحدٌ من الجمهورِ الذي يظنُّ أنكَ تسيرُ معهُ بلا رأيٍ، ومنها ما يُنادي عليكَ لتتفقّدَ بضاعَتَهُ كأنّهُ في سوقِ الخضرةِ «حيّاك يبه ترى عندنا خوش روايات».

ومنها من يقبعُ مسالمًا إلى الحدِّ الذي يجعلُكَ تودُّ التصدّقَ عليهِ.

بعدَ زياراتٍ متعددةٍ لسنواتٍ، اتضحّتْ لي رؤيةٌ كنتُ أغفلُ عنها، أو كنتُ أظنّهَا هيَ الحقيقةَ، ولكنَّ الواقعَ خلافَ ذلكَ، فترانِي أسائِلُ بائعَ الدّارِ عن الكتبِ التي عنْدَهُ وأعرفُهَا كيْ يُبدِي رأيَهُ فِيهَا - يُقالُ سأفتحُ نقاشًا - فيظهرُ أنّهُ لم يقرَؤهَا معَ غرابتِي الشديدةِ، كنتُ أظنُّ أنَّ الكتبَ تُعدِي من يجالِسُهَا العلمَ والخُلقَ، ولكنْ هذهِ أمانيّي فقطْ.

فلا تظنُّ أنَّ الأخَ الجالسَ بينَ الكتبِ - وإنْ كانَ يبدُو عليهِ التثقّفُ الزائدُ بنظّارَتِهِ السميكةِ ولحيتِهِ المهذّبَةِ - مثَقّفًا، لأنّهُ بائعٌ في الأخيرِ، وليسَ

قارئًا.

والكثيرُ يتوسّمُ الخيرَ في البائعينَ، لأنَّ بضاعتَهُمْ هيَ غذاءُ العقلِ والخُلقِ، فتُسقطُ عليهمْ الصدقَ والأمانةَ، وقدْ يتبيّـنُ لكَ خلافَ ذلكَ وهذا حسنٌ، وإنْ لمْ يتبيّن فمنَ المحتملِ جدًا أنّه نصبَ عليكَ وأنْتَ لمْ تشعرْ بذلكَ، كما حدثَ معِي.

الذي حدثَ أنّنِي أعددتُ قائمةَ الشراءِ مسبَقًا وحفظتُهَا في ملاحظاتِ الجوّالِ، وكنتُ بحثتُ مسبقًا في موقعٍ مخصصٍ للبحثِ في كتبِ المعرضِ عن رموزِ الأجنحةِ وأسعارِ الكتبِ في قائمَتِي، لكنْ مع عُجالةِ البحثِ والانشغالِ بتصفحِ الكتبِ نسيتُ أنْ أراجعَ الأسعارَ عندَ شرائِي - يبدُو ذلكَ غبيًا - ولكنْ هذا ما حصلَ.

فُخدعتُ في أغلبِ الكتبِ التي اشتريْتُهَا، وعندمَا بَدى لي أنّ أحدَهُم باعَ لي كتابًا بضعفِ السعرِ المُعلنِ عنهُ، ذهبتُ إليهِ في اليومِ التالِي ولمْ أتغاضَى، وهذَا ما حدثَ.

بدأتُ معهُ متودّدًا قائلًا: ألمْ تنفدْ نسخُ الكتابِ - وذكرتُ اسمَ الكتابِ الذي اشتريْتُهُ في اليومِ السابقِ - بعدُ؟ بكمْ تبيعُهُ اليومَ؟

قالَ: هذَا بخمسةٍ وأربعيَن ريالًا، وهمّ بإعطائِي نُسْختَيْن!

قلتُ: دعهُ، قدْ أخذتُ منهُ مُسبقًا، هنَا ارتبكَ قليلًا وشكَّ أنّهُ ارتكبَ خطأً ما، فبادرَ بالقولِ: هوَ (الآنَ) بخمسةٍ وأربعينَ.. بعدَ الخصمِ!

قلتُ وقدْ فهمتُ خُدعتَهُ: قدْ بعتَهُ لِي بستينَ ريالًا بالأمسِ القريبِ،

فكيفَ تقولُ الآنَ هوَ بخمسةٍ وأربعينَ؟

قالَ: هذا وقدْ خصمْنَا منهُ أصبحَ بخمسةٍ وأربعينَ، رددتُ عليهِ: ولماذا إذنْ تبيعَهُ لي بستينَ بالأمسِ؟ أعطِنَي حقِّي، قالَ: لا عليكَ سأقومُ بعملِ خصمٍ جيدٍ لكَ في المرةِ القادمةِ.

أسرَرْتُ في نفسِي (على جثّتِي لنْ أشترِي منْ عندكَ مرةً أخرى)، فقلتُ لهُ: لا توجدُ مرةً قادمةً، وأعدّتُ الكلامَ، لكنّهُ ظلَّ على موقفهِ – النصّاب – فسكتُّ لا أدرِي ما أفعلُ معَهُ، وانصرفتُ.

ذهبتُ بعدَهَا مسرِعًا إلى الاستقبالِ، يجبُ أن أجدَ من يساعدني، لأنّني أعلمُ أني لستُ الوحيدَ الذي تعرّضَ لهذَا الموقفِ في المعرضِ.

سألتُ عن المسؤولِ المختصِّ عن الأسعارِ، فأرشدُوني إليهِ، ذكرتُ لهُ ما دارَ بيني وبينَ البائعِ، فطلبَ منّي عنوانَ الكتابِ، أمليتُهُ فطبعَ تفاصيلَ الكتابِ من النّظامِ على ورقةٍ، وقالَ اذهبْ بهِ إليهِ وقلْ لهُ هذَا هو السعرُ الرسميُّ، مسكتُ الورقةَ وكأنّي أمسكُ دليلَ الإدانةِ، فابتسمتُ مِنْ داخِلِي، وانطلقتُ إلى أخينا المُسالمِ.

دونَ سلامٍ، أعطيتُهُ الورقةَ كما هِيَ، وقلتُ لهُ هذا سعرُ المعرضِ أمامَكَ! والآنَّ أريدُ حقّي، هُنا شعرِ بالهزيمةِ والانكسارِ، كأنّني صفعتُهُ بشيءٍ – دليل الإدانةِ –، فأحسستُ بالقوّةِ، وهوَ موقفٌ لا أشعرُ بهِ على طبيعَتي ولا أرتاحُ فيهِ.

قالَ مبرّرًا: يا أخِي هذَا السعرُ في الورقةِ من الأعوامِ السابقةِ ولم يُحدّثْ،

وهذهِ الطبعةُ التي اشتريتَهَا أنتَ جديدةً من ورقِ «شامواه» الفاخرِ، وسعرُهُ يختلفُ عن الموجودِ لديهِمْ، ونحنُ نسلّمُ لهمْ هذهِ الأسعارَ قبلَ المعرضِ بخمسةِ أشهرٍ، ويحدثُ أن نحدّثَ الطبعاتِ ونضيفَ عناوينَ أخرى ولا تتحدّثُ لديهِمْ.

لمْ أرضَ بهذا القولِ وأخضعْ، أصررتُ: أريدُ حقّي، أنتَ بعتهُ بسعرٍ مبالغٍ جدًا عليَّ، فأخرجَ المبلغَ الزائدُ عن السعرِ ووضعهُ في يدِي.

هنَا انتصرتُ لذاتِي، وأشفقتُ عليهِ شيئًا يسيرًا، قلتُ في نفسي: لأحاورَهُ وأعرفُ ما سببَ هذهِ المشكلةِ ربما لديهُ حقٌّ فعلًا، ويكونُ هوَ الضحيّةُ هُنا، كنتُ أشعرُ أنّ هناك حلقةً مفقودةً، فأخذتُ أقفُ بجانبهِ لأرى الأمورَ من منظورهِ.

وقلتُ: كيفَ يمكنُ أن يحدثَ هذا الذي قلتَهُ؟ الأمورُ تبدو غيرَ منظمةٍ، يجبُ أن تكونَ الأسعارُ محددةً من قبلكُمْ وتُحدّث كلَّ عامٍ، فكيفَ تُجبرون على أسعارٍ قديمةٍ وأنتُمْ لديكمْ طبعاتٌ جديدةٌ؟

بعدهَا بدأَ حديثًا مطولًا عن كيفيةِ عملِ دارهِ في المعرضِ، وكيفَ أنّ الكتبَ تأتي بالشحنِ وتتكلفُ مصاريفًا كثيرةً، وأنَّ سكنَهُ ومواصلاتَهُ تتكلفُ مصاريفًا، وأجرةِ «الجناحِ» في الفندقِ تتكلفُ مصاريفًا، وأن كلَّ هذا – حسبَ قولهِ – لا يُضافُ لسعرِ الكتابِ، فيضطرُّ هوَ للبيعِ بسعرٍ أعلى من الذي عندَ إدارةِ المعرضِ.

تعاطفتُ معهُ حقيقةً، واضطرَرتُ للفكاكِ منهِ على كثرةِ تبريرهِ وشكواهُ، وعدتُ أدراجِي مرةً أخرَى لمسؤولِ التسعيرِ الذي كنتُ عندَهُ

سابقًا وحدّثتهُ بحديثي معَ البائعِ.

قالَ ساخرًا: «هكذَا هوَ الحرامي يلزمُهُ أن يبرّرَ كثيرًا». وشرحَ لي أنّ الأسعارَ تُرسلُ إليهم من دورِ النشرِ قبلَ المعرضِ بشهرٍ فقطْ، وأنها تُحدَّثُ كلَّ عامٍ ولا تبقى من الأعوامِ السابقةِ. فسقطَتْ كافّةُ تبريراتِ البائعِ، وعندهَا تبيّنتُ تلكَ الحقيقةَ، الّتي تتبلورُ في ذهني عبرَ التجاربِ وهيَ الدرسُ الذي استفدتُهُ من هذَا كلِّهِ.

الدرسُ هوَ: أنَّ السارقَ لا يسرقُ وهوَ يقولُ أنّي أسرقُ، فيسرقُ ويبررُ ذلكَ في نفسهِ أنهُ محتاجٌ، وأنّ غيرَهُ قدْ سرقَهُ، وأنَّ الظالمَ لا يظلمُ حينَ يظلمُ وهو يعترفُ أنهُ ظالمٌ، بل يبرّرُ فعلَهُ بأنه يأخذُ حقّهُ أو يقومُ بتأديبِ الآخر والإحسانِ إليهِ.

حتّى القاتلَ حينَ يقتلُ، فهوَ يعتقدُ أنه يُطهّرُ العالمَ من نجاسةِ ذلكَ المقتولِ ويجعلُ العالمَ أفضلَ.

وفي أعظمُ الجُرمِ وهوَ الشركُ باللهِ، يظنُّ المشركُ أنهُ يتقربُ إلى اللهِ زُلفَى وأنهُ من عبادِهِ الصالحينَ.

نَعِيمُ الْقِرَاءَةِ

الكتابُ ليسَ مجردَ أوراقٍ خُطتْ عليهَا كلماتٌ وجملٌ، وإنما هيَ حكمةٌ متنقلةٌ ومحفوظةٌ لتتناقلَ عبر الزمنِ.

إنها ليستْ أقلُّ من الآلةِ التي يتمنى اختراعَها البشرُ للتنقلِ عبرَ الزمنِ، فقدْ تناسَوْا وجودَ الكتبِ، وكيفَ أنها تمنحُ القارئَ تذكرةَ سفرٍ مجانيةً إلى ذلكَ المكانِ الافتراضيِّ الذي يحيكهُ ويقرظُ جوانبهُ وتفصيلاتَهُ الكاتبُ البارعُ، سواءً كانَ ذلك في روايةٍ محبوكةٍ، أو في كتابٍ تاريخيٍّ ينقلُ القصصَ والأمكنةَ بحيادٍ وإتقانٍ.

والكتابُ أيضًا ينقلُ كاتِبَهُ إلى عالمنَا الحاضرِ إن كانَ من السابقينَ، فهوَ الذي يجعلُ الإنسانَ خالدًا في الإرثِ البشريِّ، وهذا أيضًا ما يتمنى البشرُ إيجادَهُ، والمتمثلُ في «إكسيرِ الخلودِ» وتناسَوْا أنَّهُ يكمنُ في الكتابِ.

قيمةُ القراءةِ تصعبُ كتابتها من كاتبٍ مبتدئٍ مثلي، فقدْ أتعبَ العديدَ من عظماءِ الأدبِ والروايةِ، وهوَ الذي كانَ شغلهمُ الشاغلُ وعملهمُ الدائمُ طوالَ حياتهمْ، حتى إنَّ توقفَ الكتابةِ كانَ يعني الموتَ عندَ الروائيِّ الكولومبيِّ «غابرييل غارسيا ماركيز» حيثُ يقولُ:

«لَا يوجدُ شيءٌ أحبهُ في هذا العالمِ أكثرَ من الكتابةِ، أظنُّ أني أكتبُ لأني

أخافُ من الموتِ. وإذا توقفتُ عن الكتابةِ، سأموتُ!».

عندمَا نتحدثُ عن القراءةِ فنحنُ نقصدُ معناها الواسعَ، وليسَ قراءةُ المقرراتِ الدراسيةِ، أو قراءةُ جريدةِ الصباحِ، بل هيَ تلكَ القراءةُ العامّةُ والواسعةُ في أنواعِ الكتبِ والمجالاتِ التي نحبُّ منها ونكرهُ، فهيَ قراءةُ الاطّلاعِ وإشباعِ الفضولِ والتعرفِ على شتَّى علومِ الحياةِ وأصنافِ فنونِها.

هيَ القراءةُ فقطْ التي تجعلناَ نجدُ أشخاصًا في هيئةِ كتبٍ، لمْ يبقَ منهم إلّا ما خطّتهُ أيديهمْ في زمنٍ ما، لكننا نجدُ فيهمْ الملجأَ عندَ الضيقِ، والصدقَ عندَ انتشارِ الكذبِ، والسعادةَ عندما نحزنُ ونضطربُ.

لكلِّ قارئٍ يجيدُ القراءةَ حقًا عديدُ الأصدقاءِ الذينَ تحصّلَ عليهمْ من عناوينَ مختلفةٍ، ومتى استحْكَمتْ عُرى المودّةِ بين القارئِ وصديقهِ، سيدفعهُ ذلكَ إلى التحدثِ مع صديقهِ في مواضعَ أخرى ومختلفةٍ، فينطلقُ باحثًا عنِ الكتبِ الأخرى التِي تركَها صديقُهُ لهُ، ويزدادُ من ذلكَ مودةً وحُبًّا، وإلهامًا وفكرًا.

هذهِ هيَ بعضُ أشهَى ثمارِ القراءةِ التي تتعدّدُ أشجارُهَا، وتختلفُ بساتينُهَا.

عندمَا ترَى رفوفَ مكتبتكَ تشتكِي الجوعَ، وتناديكَ لأن تزيدَ من حصتِها، هُنا ستُصابُ بمرضٍ جميلٍ لا يُداويهُ إلا زيارةٌ عاجلةٌ للمكتبةِ، قدْ تكونُ حضّرتَ قائمةً من المشترياتِ، التي لنْ تجدَ أغلبَها!

لا بُدَّ وأن تشعرَ بسرورٍ بالغٍ عندما تقفُ بين مئاتِ الكتبِ المختلفةِ، تودُّ لو تمتلِكُها جميعَها وتضمُّها لمكتبتكَ، ستحبُّ لو تعانقَ كلَّ كتابٍ وتتعرفُ عليهِ لكنَّ الوقتَ لنْ يكفِيَكَ.

تقلّبُ ناظريكَ باحثًا عن العنوانِ المرغوبِ بينَ كتابٍ وآخرٍ، في هذهِ اللحظاتِ احذرْ! والحذرُ غيرُ مطلوبٍ، سواءٌ شئتَ أم لمْ تشَأ، ستتحرّكُ يدكُ لتنتشلَ إحدى الكتبِ.

تقرأُ العنوانَ ثمَّ تقلّبُ أوراقهُ، هكذا تختلسُ النظرَ في الصفحاتِ من غيرِ قراءةٍ، فقطْ لتشتمَّ شيئًا من رائحتهِ، وتتلمسَ جودةَ ورقهِ، تقلّبُ الكتابَ في يدكَ لتلقي نظرةً فضوليةً خلفَ الكتابِ.

ربّما تقولُ في نفسكَ: «أوه ما هذا لم أفهمْ شيئًا، لكنّي أحبُّ أن أفهمَ عن هذا الموضوعِ».

تفتحُ الفهرسَ وتصوّرُ المحتوياتِ، يبدو الكتابُ شهيًّا، دعنِي أقرأ شيئًا من هذا الفصلِ، تقرأُ قليلًا وتسترسلُ، هُنا تقولُ لنفسكَ توقّفْ قليلًا ثم تخاطبُ الكتابَ: «هلْ تريدُ أن نصبحَ أصدقاءً؟».

هذهِ النهايةُ السعيدةُ ستجعلُ للكتابِ الجديدِ منزلًا جديدًا فوقَ أحدِ أرففِ مكْتبكَ الجائعةِ.

والآن, أينَ ذهبتْ اختيارتُكَ؟ هل اخترتَ الكتابَ الذي تريدهُ؟

هلْ أشبعتَ جوعَ مكتبكَ أو معرفتكَ؟

تَنَكُّرُ الإعْلامِيِّينَ

كثيرٌ ما مرّت عليّ نقاشاتٌ في الجامعةِ عندما كنتُ عضوًا في نادي الإعلام الطلابيِّ، وحتى بعد أن تخرّجتُ وحضرتُ ندواتٍ إعلاميّةٍ، وكذلكَ رأيتُه في عالم «تويتر» الافتراضيَّ، هذا الجدلُ العقيمُ الذي سمعتُهُ أكثرَ من مرّةٍ وخُضتُ فيهِ مرةً من غيرِ نتيجةٍ هو:

منْ هوَ الإعلاميُّ؟

سأضع تعريفًا بسيطًا يمثلُ الفئةَ التي سيتناولها الحديث هُنا.

الإعلاميُّ هوَ كلُّ شخصٍ لديهِ معلومةً يريدُ إخبارَهَا لفئةٍ منَ الناسِ، ويستخدمُ لذلكَ إحدَى وسائطِ الإخبارِ، بالإضافةِ إلى أنَّهُ يبحثُ عنِ الشُهرةِ.

الأخيرةُ هذهِ مهمةٌ جدًا حيثُ من لا يبحثُ عن الشهرةِ ويقولُ رغمًا عن ذلكَ أنهُ إعلاميٌّ فهذا إمَّا أنَّهُ لا يعرفُ الإعلامَ، أو أنّهُ لا يعرفُ نفسَهُ حقيقةً.

الآنَ وقدْ وضحَ هذا التعريفُ، فتتسارعُ صورَ العديدِ من الشخصياتِ في مخيلتكَ وتستحضرها فورًا، هؤلاءِ الأشخاصُ إمَّا أن يكونوا مُلهمينَ لكَ أو أنَّكَ تمقُتهُمْ بشدّةٍ.

لماذَا أقولُ هذا الكلامَ ولماذا لا يوجدُ نوع وسطٍ بينَ نقيضينِ؟

لأنَّ الإنسانَ متَى عرّضَ نفسَهُ للآخرينَ ووصلَ لحدِّ الشهرةِ، فسيكونُ – بطبيعةِ الحالِ – لهُ جمهورٌ أوصلَهُ إلى هذا الحدِّ، وهذَا الجمهورُ هوَ نفسُهُ ينقسمُ لنوعينِ، المُحبُّ الداعمُ وهوَ الأقلُّ تأثيرًا، والكارهُ المسيءُ وهو الذِي لهُ الفضلَ فيما وصلَ إليهِ الإعلاميُّ من الشهرةِ.

ونحنُ في هذَا العصرِ الذي نعيشهُ، حيثُ كلُّنَا يعرفُ ماهوَ الإعلامَ، وكلّنَا يمتلكُ «الأدواتَ الإعلاميةَ» في جيبهِ، ويستطيعُ أن يغدُو إعلاميًا بينَ ليلةٍ وضحاها.

إذنْ ما المشكلةُ في أنْ يكونَ الكلُّ إعلاميًا؟

الحقيقةُ أنَّ واقعَ شبكاتِ الإعلامِ الاجتماعيِّ جعلَ شريحةً كبيرةً من الناسِ تتصرفُ على أساسٍ إعلاميٍّ، فكلُّ شخصٍ يَرى في نفسِهِ أنَّ لديهِ شيءٌ مثيرٌ ليُعلِمَ بهِ الناسَ.

فبتنا نَرى أنَّ أدنى الناسِ في الطرحِ، وأتفهَ العقولِ التي ينقصُهَا التفكيرُ الجيّدُ أصبحتْ تشاركُ حياتَها للناسِ، وتتحدثُ في مواضيعَ لا تفقهُ فيها شيئًا، وتتجرّأُ لتقييمِ الخدماتِ العامةِ المقدمةِ للناسِ بأنَّ هذهِ جيدةً وتلكَ سيئةً، وأن رأيها يستوجبُ المتابعةَ.

مِنْ تبعاتِ هذهِ الصورةِ المغالطيةِ، أنَّ الناسَ ذوِي التفكيرِ السطحيِّ وقلةِ الخبرةِ في الحياةِ تُتابعُ هؤلاءِ المشاهيرَ وتقتدي في أطروحَاتِهِمْ وتقييماتِهِمْ، وتُلقي لها آذانَها وعقولَها كيْ تنساقَ وراءَ طريقتهمْ في العيشِ،

وتجربةِ ما يجربونَهُ.

وأصبحتْ تلكَ الدائرةُ الفارغةُ من القيمِ هيَ شيءٌ لهُ قيمةٌ في حدِّ ذاتها، فإنْ جرحتَ هذهِ الدائرةَ أو ألقيتَ لها النقدَ ستَلقى آلافَ المدافعينَ والمرابطينَ، وستُتّهمُ بتهمِ الحقدِ والحسدِ والغيرةِ وكُرهِ الحياةِ الاجتماعيةِ وغيرِهَا.

والحقيقةُ أنَّ الكثيرَ مِنْ ممارسي الإعلامِ يتّسِمُونَ بالسطحيةِ الفكريّةِ والثقافةِ الضحلةِ، وليسَ لديهمْ سوى ذلكَ الحضورِ المُدربِّ تدريبًا كثيفًا والكلماتِ «الإيجابيةِ» المكررةِ.

ويعلمُ عقلاءُ الناسِ أنْ ليسَ كلُّ من ظهرَ في الإعلامِ هوَ متخصصٌ أو ذو ثقافةٍ فيما يطرحُ، فليسَ من قدّمَ نشراتِ الأخبارِ بعالمٍ في السياسةِ وخباياها، ولا منْ يقدمُ البرامجَ الدينيةَ والوعظيةَ عالمٌ بالفقهِ وأصولهِ.

الإعلاميّونَ سلكُوا طريقًا سهلًا للوصولِ إلى الناسِ، بينَما يعكفُ المتخصصونَ على العلمِ حتى يتمكّنُوا منهُ ثمَّ يُحاولونَ تعليمَهُ لفئةٍ محدودةٍ من الناسِ تطلبُهُ.

هذا الفرقُ بيَن الإعلاميِّ متلبّسَ عباءةَ الخبيرِ، والمتخصّصِ الخبيرِ ذاتِهِ.

إذنْ الجوابُ على سؤالِ: مالذي سيحدثُ لو تحولَ الكلُّ إعلاميًا؟ هوَ الواقعُ الذي نعيشُهُ، حيثُ يتجهُ الواقعُ نحوَ تهميشِ القيمِ الحقيقةِ والإنجازاتِ الشخصيةِ، والعلمِ النافعِ، وتثقيفِ الناسِ؛ ويتجّهُ لترفيعِ

قيمةَ «الشخصيّةِ المشهورةِ» التي لا تشتهرُ بشيءٍ سوى الاستهلاكِ بصورةٍ إعلاميةٍ، وضررُ كلُّ ذلكَ سيعرفهُ المستقبلُ القريبُ، حيثُ أنَّ الحاضرَ غالبًا ما يكونُ أعْمى نحوَ إدراكِ حقيقتِهِ ومآلاتِهِ.

فَلْسَفَةُ الإيجَابِيَّةِ

هذهِ مقالةٌ إيجابيةٌ تتحدثُ عنِ السلوكِ الإيجابيِّ الذي يجبُ ممارستهُ في المجتمعِ ليحققَّ لهُ أكبرَ قدرٍ من الإيجابيةِ ويُسهمُ في تطويرِ التعايشِ الإيجابيِّ بينَ أفرادهِ.

هلْ فهمتَ شيئًا منَ العبارةِ السابقةِ؟ هلْ زادتْ في علمكَ أمْ جعلتكَ أكثرَ غموضًا وقلتَ في نفسكَ «أيَّ هراءٍ هذا»؟

هذَا هوَ شعوري عندمَا أسمعُ منْ يتكلمُ كثيرًا ولا يقولَ شيئًا في نفسِ الوقتِ، لنعدْ للعبارةِ السابقةِ.

أستطيعُ صياغةَ العبارةِ السابقةِ في إبدالِ كلمةِ الإيجابيةِّ بالمعنى الذي يتناسبُ حقًا معَ السياقِ.

هذهِ مقالةٌ مفيدةٌ تتحدثُ عنِ السلوكِ الخيّرِ الذي يجبُ ممارستهُ في المجتمعِ ليحقّقَ لهُ أكبرَ قدرٍ منَ المنفعةِ، ويُسهمُ في تطويرِ التعايشِ الصحيِّ بينَ أفرادهِ.

وبعدَ المقدمةِ أقولُ، ابتلينَا بتكرارِ الكلماتِ التي لا ندخّرُ جهدًا في التفكيرِ فيها أو وزنهَا قبلَ إقحامهَا في عباراتنَا اللفظيةِ وحتى المكتوبةِ، فهناكَ كلماتٌ مطّاطةٌ، فضفاضةٌ، ليسَ لها معنًى دقيقٍ ولا تعكسُ تصورًا

فكريًا في ذهنِ المتلقي، وأشهرُ هذهِ الكلماتِ هيَ الإيجابيةُ والسلبيةُ.

ولكَ أن تقرأَ في مقالةٍ صحفيةٍ أو كتابٍ في التنميةِ البشريّةِ أو تسمعُ برنامجًا تلفزيونًا، أوْ إن أردتَ أن تتسطّحَ غايةَ التسطيحِ، استمعْ لإذاعةٍ رسميةٍ وهيَ تتشدّقُ عنِ الإيجابيةِ في المجتمعِ، والسلوكِ الإيجابيِّ، وكلِّ شيءٍ إيجابيٍّ، والبعدِ عنِ السلبيةِ، والأفعالِ السلبيّةِ، وكلِّ شيءٍ سلبيٍّ.

علَى أنَّ الإيجابَ والسلبَ كلمتانِ لا تتحملانِ كلَّ هذا العبءِ المعنويِّ المُلقَى عليهمَا، فهمَا كلمتانِ موضوعيتانِ ليستْ لهمَا علاقةً بالنفعِ أوِ الضَّررِ، بالفضيلةِ أو الرذيلةِ، بالخيرِ أو الشرِ، همُا وصفانِ موضوعيانِ ليستْ لهما دلالةً أخلاقيةً، يُفهمانِ أكثرَ عندما يُرمزُ لهمَا بالرمزينِ المعروفينِ «+» و«−».

فالشيءُ الإيجابيُّ هو الذي يكونُ فيهِ إضافةٌ وزيادةٌ، والشيءُ السلبيُ هوَ الذي يكونُ مُفتقَدًا أو ناقصًا، هكذَا تتضحُ قيمةُ هاتينِ الكلمتينِ.

وخيرُ مثالٍ أو سياقٍ تستطيعُ أن تفهمَ فيهِ القيمةَ الموضوعيةَ للسلبِ والإيجابِ، هوَ في علمِ النفسِ، في موضوعِ تقويمِ السلوكِ، باستخدامِ الثوابِ أو العقابِ.فالثوابُ هوَ الجائزةُ أو المكافأةُ التي تهدفُ إلى تعزيزِ السلوكِ، أما العقابُ فهوَ معروفٌ.

فمثلًا لوْ قامَ طالبٌ بحلِّ واجبٍ في المدرسةِ بشكلٍ صحيحٍ، ونودُّ تعزيزَ هذا السلوكِ لديهِ، نقومُ ببساطةٍ بمكافأتهِ. **كيفَ يكونُ الثوابُ؟** هُنا نستطيعُ تقسيمَهُ إلى قسمينِ، ثوابٌ إيجابيٌّ وثوابٌ سلبيٌّ، نعمْ الآنَ عُدنَا للإيجابيةِ والسلبيةِ مرةً أخرَى.

أمّا الثوابُ الإيجابيُّ فيكونُ ببساطةٍ بتقديمِ شيءٍ يحبّهُ الطالبُ مكافأةً لهُ، مِثلَ زيادةٍ في ساعاتِ اللعبِ، أوْ شراءِ هديةٍ، أو حتى كلماتِ المديحِ المعنويةِ والتي قد تُعدُّ مكافأةً بالنسبةِ لهُ، أما عنِ الثوابِ السلبيِّ فيكونُ بإزالةِ أو سلبِ شيءٍ يكرههُ الطالبُ، مِثلَ أن نُسقطَ عنهُ تنظيفَ غرفتهِ هذا الأسبوعَ، أو نتركَ تأنيبَهُ على النومِ متأخرًا في الليلِ، وهذا هوَ الثوابُ السلبيُّ.

على هذا نزعمُ أنَّ الإيجابَ والسلبَ كلمتانِ محددتانِ وقدْ كثرَ اللغطُ في استعمالِهِمَا في أيِّ سياقٍ وكلِّ موضوعٍ بدونَ تفكّرٍ أو بذلِ أيَّ جهدٍ لاختيارِ الكلمةِ المناسبةِ، فكفى سلبًا لجماليةِ التعبيرِ، وكفى إيجابيةً باستخدامِ الكلماتِ المطاطةِ من غيرِ طائلٍ.

لَذَّةُ رَمَضَانِيَّةٌ

في أيامِ رمضانَ ولياليها، تفيضُ أحاسيسٌ ومشاعرٌ لا تستطيعُ وصفَها الكلماتُ، تملأُ الإنسانَ سكينةً في الروحِ، وصفاءً في الفكرِ، وخشوعًا في القلبِ؛ تجعلهُ يشدُّ الهمّةَ ويُهيّءُ الجسدَ للتلذذِ بالطاعةِ، في وقتٍ كانَ في أيامهِ الماضياتِ جسدًا بلا روحٍ، شغلتهُ الدنيَا ولا يحسُّ بطعمِ العبادةِ.

هذا التلذذُ بالصومِ الذي يُعارضهُ الجسدُ في طبيعتهِ، حيثُ يُحرمُ من شهوتهِ للطعامِ وهوَ موجودٌ في المتناولِ، وعدمُ كفايتهِ للنومِ ليلًا وهو يطلُبهُ، والإجهادُ اليوميُّ للرجلينِ والرقبةِ في صلاةِ القيامِ، كلُّ هذا الألمُ يتبدّلُ حالهُ من شدّةٍ إلى لذّةٍ ليستْ من التعذيبِ في شيءٍ، فكأنَّ مكارهَ الجسدِ أصبحتْ شهواتٌ، وشهواتُها مستقذراتٌ.

إنَّهَا نسائمُ الرحمةِ، فإنَّ الجنّةَ حُفّتْ بالمكارهِ، ولكنَّ أبوابَها تُفتحُ، وإنَّ النارَ حُفّتْ بالشهواتِ، ولكنَّ أبوابَها تُغلقُ.

فهذا الذِي تجدهُ من انطفاءِ الشهوةِ الحيوانيةِ، وسمُوِّ الروحُ يتبعها الجسدُ إلى الطاعةِ الرحمانيّةِ، هوَ من ذلكَ، وهذا منْ كاملِ العطاءِ والرحمةِ والمنحِ الإلهيةِ التي لا نُحسنُ شكرها ولنْ نستطيعَ.

عندمَا تقضِي معظمَ وقتكَ في الطاعةِ، بينَ صيامٍ وتلاوةٍ للقرآنِ

وتسبيحٍ واستغفارٍ، وصلاةٍ وقيامٍ واستماعٍ للذكرِ وخشيةٍ في القلبِ، تعلمُ لماذاَ يُباهِي اللهُ بالمسلمينَ ملائكتَهُ في هذا الشهرِ المُباركِ.

فنحنُ عندما نُنعّمُ للطاعةِ بفضلِ الله، نخرجُ من ضيقِ الجسدِ ووسوسةِ الشيطانِ، ونرتفعُ عن السيئاتِ لنصلَ إلى درجةٍ تعلُو على درجةِ الملائكةِ التي تسبّحُ لله مذْ خُلقتْ، فإنَّ الملائكةَ لم يُعطَوْا الأجسادَ التي تفتقرُ لما يقوّمُهَا من غذاءٍ وشرابٍ وشهوةٍ.

فعظيمُ الأجرِ والمباهاةِ التي يستحقها المؤمنُ تكونُ لأنَّهُ سما ونقّى جسدَهُ من الخبثِ ليصلَ إلى مرتبةٍ إيمانيةٍ يحبها الله ويباهي بها.

النفسُ البشرّيةُ تنقادُ للصاحبِ في سلوكِها، ومنَ المعروفِ أنَّ الصديقَ يؤثرُ على صديقهِ لشدةِ ملازمتهِ إياهُ، والفردُ يتأثرُ بأسرتهِ ومجتمعهِ لتربيتهِ ونشأتهِ فيهما.

فهذا الجَمعُ الذي يتصرفُ على طريقةٍ معينةٍ يُشكّلُ في تشابهِهِ عقليةً واحدةً من العاداتِ والسلوكِ والأخلاقِ والأعرافِ، لهذا يُدعَى بـ «العقلِ الجمعيِّ».

العقلُ الجمعيُّ لهُ تأثيرهُ الواضحُ، وهوَ الذي يجعلُ منْ لا يتذوّقُ ما سبقَ ذكرِه من اللذّةِ والخشوعِ في العبادةِ، يقومُ مع الجماعةِ بما يقومونَ بهِ منَ الصيامِ والقيامِ.

يكونُ المشيُ مع التيّارِ هو القوةُ الدافعةُ لدى أولئكَ، فهمْ الذينَ اعتادُوا العيشَ مع النّاسِ، والتصرفَ في سلوكيّاتٍ محببّةٍ للنّاسِ، ومنِ أجلِ النّاسِ

أنفسهمْ لا يستطيعونَ أنْ يختلفُوا مع التيّارِ فيتأثرونَ بالعقلِ الجمعيِ.

وهذا أيضًا منْ فضلِ الله عليهمْ، وحُسنِ اختبارِهِمْ واستدراجِهم للطاعةِ، لكيْ يبتعدوا عنِ المساراتِ الخاطئةِ والسلوكِ الخبيثِ.

فمنْ قلّتْ طاعتُهُ وقَصَّرَ عن إمدادِ روحهِ وتقويمِها بنفسهِ في رمضانَ، فلينخرطْ مع جماعةِ المُصلّينَ والقائمينَ.

ومنْ فتَرَ عن تلاوةِ القرآنِ ونسيَ الكثيرَ مما كانَ يحفظُ منهُ، فليلتحِقْ بحِلَقِ المراجعةِ والحفظِ في المساجدِ، ولْيَكنْ معَ الجماعةِ حيثُما كانَتْ تسيرُ في طرقِ الخيرِ.

وليكنْ هذا الشهرُ الواحدُ في السنةِ هو التغييرُ الذي كنتَ تنتظرهُ في كلِّ يومٍ، لتبدَأَ عاداتِكَ الصحيحةَ وعباداتكَ التي تؤجِّلُهَا، ولْيتبْ كلُّ عاصٍ عنْ أفعالهِ الذميمةِ.

المدخّنُ يقطعُ إدمانَهُ، والمستمعُ لأغاني الطربِ الفاحشةِ والموسيقَى ينتهِ إلى أصواتِ القُرّاءِ الخاشعةِ، ومنْ كانَ أكولًا ممتلئَ البطنِ، فليخفّفْ من طعامهِ وليتْبعْ حميةً صحيّةً.

فممّا لا يُدركهُ الناسُ، أنَّ منْ آثارِ الصومِ هوَ الشعورُ بالجائعِ الفقيرِ، ومَنْ لا يجدُ حاجتهُ من الطعامِ، فلا يُتبعْ ذلكَ الصومَ بكثيرِ طعامٍ وشرابٍ، فهذا مما يُعارضُ مقاصدَ الصومِ.

وقدْ دلّتِ الأبحاثُ الطبيةُ على وجودِ مشكلاتٍ كثيرةٍ في الإقبالِ بشراهةٍ على الطعامِ بعدَ الصيامِ الطويلِ.

فهذهِ بركاتُ رمضانَ نعدُّ شيئًا مِنها وقدْ فاتَنا الكثيرُ ممّا لا نستطيعُ حصرَهُ، فالغنيمةُ الغنيمةُ، والهمّةُ الهمّةُ.

اللُّغَةُ وَعِلاقَتُهَا بِالْهَوِيَّةِ

كنتُ ولا أزالُ أتخذُّ موقفًا جادًّا نحوَ اللغةِ العربيةِ، وكثيرًا ما طُرِحَ موضوعُ الدفاعِ عن اللغةِ العربيّةِ وسيطرَحُ في يومهِ العائدِ كلَّ سنةٍ، وأنَا لا أقفُ موقفَ المَدافعِ عن اللغةِ أمامَ هجماتِ المستغربينَ والداعينَ لطُغيانِ اللغةِ الأجنبيةِ – الإنجليزيةِ – في كافّةِ المناحي، حتّى تلكَ التي يتحادثُ فيها عربيّانِ أصليّانِ افتراضًا، فأصبحَا بضاعةً مقلّدةً، لا هُما عرفَا الطّيرانِ مع النوارسِ، ولا عرفَا المشيَ كالدجاجةِ!

لكنّي أنحى وأزعمُ أنَّ اللغةَ الأمَّ هي ما تُشكّلُ عمقَ الشخصِ، وتؤثّرُ في أفكارِهِ، والمبادئِ التي يمشِي بها، بمعنى أوضحٍ أنَّ اللغةَ هيَ جوهرٌ يتشكّلُ في شخصيةِ المرءِ ويؤثّرُ على هويتهِ الظاهرةِ.

لكيْ نفهمَ هذا الارتباطَ بين اللغةِ والهويةِ، لابدَّ أن نؤسسَ تعريفًا واضحًا لكلٍّ منهما، ثمَّ نبني ذلكَ الجسرَ الذي يصلُ كلَّ منهما بالآخرِ.

ولِنرَ هلْ تكونُ نتيجةُ ذلكَ علاقةً ارتباطيةً تتأثرُ بالأخرى، أم أنَّ الأمرينِ يمشيانِ كلٌّ في طريقهِ.

اللغةُ هي تكوينٌ معرفيٌّ يكتسبهُ الإنسانُ في أطوارِهِ الأولى في الحياةِ عن طريقِ التعلّمِ بالنمذجةِ أو التقليدِ، وهذهِ اللغةُ الأولى المُكتسبةُ تُسمّى

«اللغةُ الأمُّ» لأنّهَا تكونُ في معظمِ الأحوالِ اللغةُ التي تتحدثهَا الأمُّ التي تُربِّي [1].

واللغةُ هيَ الطريقةُ الشائعةُ التِي يستخدمها الحيوانُ عندما يريدُ أنْ يتواصلَ معَ الآخرينَ، ويستخدِمُهَا الحيوانُ الناطقُ «الإنسانُ» في التعبيرِ عن أفكارهِ وأيضًا في التواصلِ معَ الآخرينَ، والجزءُ الأهمُّ هُنا هوَ التعبيرُ عن الأفكارِ.

فالأفكارُ هيَ الموضوعاتُ الذاتيّةُ التي تستحثُّ التعقّلَ، وتُحرّكُ ملكةَ العقلِ في الإنسانِ، وهذَا أهمُّ ما يُميّزُ الإنسانُ عن غيرهِ منَ الحيواناتِ، ولما كانَ ذلكَ لهُ أقصَى قدرٍ منَ الأهميّةِ، كانتِ اللغةُ التي تُعبّرُ عن هذهِ الأفكارِ هيَ بشكلٍ طبيعيٍّ لها أهميّةٌ قُصوى لدى الإنسانِ.

نستنتجُ من إثباتِ المقدمتينِ السابقتينِ، وهيَ على سبيلِ الاختصارِ، الأولى أنَّ اللغةَ في مُكتَسبِهَا الأولِ «اللغةَ الأمَّ» هي اللبنةُ الأوّليّةُ للمعرفةِ، والثانيةُ أنَّ اللغةَ هيَ الأداةُ البديهيةُ للتعبيرِ عنِ الأفكارِ، وهيَ التكوينُ الفريدُ لدى الإنسانِ العاقلِ.

ومنْ ذلكَ نستنتجُ أنَّ للغةِ أقوى الارتباطِ في هويةِ الفردِ وتكوينهِ المعرفيِّ منْ أفكارٍ وتعبيرٍ، ويمتدُّ ذلكَ على السلوكِ الذي يتشكلُ، ويُكتسبُ من البيئةِ، فلغةُ الشخصِ هي قِوامُ هويّتِهِ، وعندما تعرفُ لغةَ

(1) في العصرِ الحالي، وفي ظلّ العولمة التي اكتسحت المجتمعات، أصبحت هُناك أنواعٌ عدة من الأمّهات، فلكَ أن تتخيل أنّ بويضة تتبرع بها الأم الأولى، وتوضع في أنثى أخرى لا تنتج فهي الأم الثانية، فتحمل بالبويضة الملقّحة ثم تلد، وبعد الولادةِ تتكفّل المرضعة لتغذية الطفل حتى يبلغ الفطام فهي الأم الثالثة، ثم تأتي من تتكفل بتربية المولود فتكون الأمّ الرابعة؛ وهذه الأخيرة هي الأمّ التي تربي. لمعلومات أكثر عن هذا الموضوع أنظر: أولريش بك: الحب عن بعد، منشورات الجمل، 2014.

الشخصِ ستعرفُ جذورَهُ المعرفيّةِ، وشيئًا من أفكارهِ التي يُؤمنُ بها، ولكنَّ اللغةَ ليست كلُّ شيء في الهويةِ، بلْ تشكّلُ الجزءَ الأساسيِّ منها.

بعدَ هذا التقريرِ، منَ الطبيعيِّ أن يأتي معارضٌ ليقولَ: ماذا عن اللغاتِ الأخرى المكتسبةِ بالتعلّمِ والمُمارسةِ في أطوارٍ متأخرةٍ من حياةِ الفردِ، من مدرستهِ أو جامعتهِ، أو محيطِ أصدقائهِ الجددِ وغيرها، كيفَ تكونُ هذهِ اللغاتُ جزءًا من هويتهِ؟ وهلْ يتعارضُ تعلمُّ لغاتٍ أخرى على اللغةِ الأمِّ، أو يستبدلُ أهميّةَ اللغةِ الأمِ بلغةٍ أخرَى بديلةٍ؟

وللجوابِ على ذلكَ، نقولُ:

أولًا، منَ الشائعِ جدًا أن نجدَ أفرادٌ يتقنونَ لغةً ثانيةً بجانبِ لغتهمْ الأمِّ، إنَّ اللغاتِ المُكتسبةَ الثانويةَ تدخلُ لتبرزَ نفسها كجزءٍ فعّالٍ من الهويّةِ.

فتعلّمُ اللغةِ لا يكونُ عبرَ حفظِ سلسلةٍ من الحروفِ والمقاطعِ الصوتيةِ وتركيبِ الجملِ وحسبٍ، بل بمعرفةِ تاريخها والاستماعِ لمتحدثيها وقراءةِ الكتبِ التي كتبَها متحدّثي هذهِ اللغةِ.

جميعُ هذهِ الوسائلِ في تعلّمِ اللغةِ تُبنى بشكلٍ أساسيٍّ على أفكارِ أصحابها، وتعبيراتِهمْ وانفعالاتِهمْ، وبشكلٍ أخصٍّ على ثقافتهمْ الخاصةِ بهمْ، وبالتالي فتعلمُ لغةٍ لا يعنِي تعلّمُ الحديثِ بها فقطْ، بل تلمّسُ ثقافتها وتاريخِها، والتأثّرُ بأشخاصِها ومؤثريها.

وبذلكَ تُضافُ لملكةِ الإنسانِ المعرفيّةِ والفكريّةِ أفكارًا أخرى،

ووسائلَ أخرى للتعبيرِ عن الأفكارِ، وعندما تكونُ هُناك أكثرَ من طريقةٍ للتعبيرِ عن فكرةٍ واحدةٍ، ستُقامُ على الجهةِ الأخرى طريقتينِ للتفكيرِ في عبارةٍ واحدةٍ، أو وجهتَيْ نظرٍ لرؤيةِ مشهدٍ واحدٍ.

وهذا كلّهُ لهُ التأثيرُ الإيجابيُّ المفيدُ للشخصِ، بشرطِ ألا تطغَى اللغةُ الثانويةُ على لغتهِ الأمِّ، فعندها ستتغيرُ هويّتهُ وأفكارهُ وتعبيراتهُ وفهمهُ للأمورِ.

وهذا ما يخشاهُ أولئكَ المُعارضينَ لاستبدالِ اللغةِ الإنجليزيةِ للغةِ العربيةِ في المناهجِ التعليميةِ المبكرةِ والمراسلاتِ الوظيفيةِ الرسميةِ وغيرها من شؤونِ الحياةِ، يخشونَ هذا الطغيانَ اللغويَّ الدخيلَ، وأن يستبدَّ بجذورهِ ويتسلّطَ على عقولِ الأفرادِ وينزعَ عنهُم لباسَ العربيّةِ وأفكارها.

هذا الخوفُ لهُ أساسهُ، ولكنْ لهُ أسبابهُ أيضًا، فأيُّ مرضٍ كما أنَّ لهُ دواءٌ، فيُحتاجُ للنظرِ في سبلِ الوقايةِ من الإصابةِ بهِ.

فمنْ تلكَ الوسائلِ، تعزيزِ مكانةِ اللغةِ العربيّةِ في نفوسِ أبنائِها، وذلكَ بتوظيفِها في حياتهمْ وليس عبرَ تلقيّها وتعليمها بشكلٍ محدودٍ في المدارسِ، فإنْ لمْ تُستعملْ في المراسلاتِ ولا الأبحاثِ ولا التعلّمِ ولا التحدّثُ فما جدوَى تعليمِها؟

إن لم يكنْ توظيفُ اللغةِ ذا أهميةٍ في شؤونِ الحياةِ فلن ينشَأَ جيلٌ يقدّرُ اللغة حقَّ قدرها، وسيكونُ مرغمًا على تقيّئها بشكلٍ مشوّهٍ إن أُجبِرَ على التحدّثِ أو الكتابةِ بها، كما نراهُ الآنْ عندَ الجيلِ الجديدِ الذي لا يفرّقُ بينَ

همزةِ الوصل وهمزةِ القطعِ، والأمرُّ من ذلكَ أنه لا يُتقِنُ الأبجديّةَ أساسًا، فقلبَ حرفَ الضادِ ظاءً، وحرفَ القافِ غينًا، والجيمَ ياءً، ولكن هذا في العاميّةِ فيتسامحُ فيهِ.

سَرَابُ الْحَدَاثَةِ

لمْ يشهدْ أيُّ عصرٍ من عصورِ التاريخِ تغيّراتٍ وتطبيقاتٍ ومفاهيمَ علميةً كالّتي يُعاصرهَا الجيلُ الحالِي ويستخدِمُهَا في يوميّاتِهِ.

هذهِ **الطفرةُ التقنيةُ** دخلتْ علينا منْ أوسعِ أبوابِهَا، فتسكّعتْ في البيوتِ واستبدّتْ بالعقولِ ونشرتْ ثقافةَ الخمولِ والقصورِ، كلُّ ذلكَ بحجةِ تحسينِ حياتِنَا، واختصارِ الوقتِ في أعمالِنَا، كي تزيدُ الإنتاجيةُ وتتطورُ مجتمعاتُنَا، هذا الهُراءُ تستطيعُ تفنيدَهُ الإحصائياتُ والدراساتُ ولستُ هُنا لتفنيدِها، بلْ لاستنْكارِها.

إنَّ الوجهَ الحقيقيَّ للاختراعاتِ التقنيةِ المُوجهّةِ لعامةِ الناسِ هيَ سرقةُ أموالِهِمْ، وجعلُ الناسِ حبيسينَ للاستهلاكِ بطريقةٍ مستمرةٍ، أيْ ضمانُ مدخولٍ سنويٍّ من نفسِ شريحةِ العملاءِ المستهدفينَ، وعلى هذا نرى تعددَّ المنتجاتِ لدى الشركةِ الواحدةِ، وتصلُنا تحديثاتٌ سنويةٌ طفيفةٌ، لا تُسمنْ ولا تغنِي، لكنَّهَا تجعلُ المستهلكَ يتوقُ للتجديدِ، وخيرُ مثالٍ لمثلِ هذهِ الشركاتِ هيَ «أبل».

فخُذْ مثلًا «الآيفون»، لمَ ينتظرُ الناسُ على أحرِّ الجمرِ الإصدارَ الجديدَ منه كلَّ عامٍ؟ هلْ يبحثونَ عن تقنيةٍ جديدةٍ تسهّلُ حياتَهُمْ؟

تخيّلْ مثلًا ذلكَ التافهَ الذي يضيّعُ عشراتِ الساعاتِ أمامَ الجوالِ، يهبُّ لاقتناءِ «الآيفون» الجديدَ لأنّهُ يحوِي معالجاتٍ متطورةٍ تجعلُ العملياتِ أسرعَ بمرتينِ عن النسخةِ السابقةِ.

يعنِي أخونَا في الله الذي ضيّعَ الساعاتِ أمامَ الجوالِ، يريدُ اقتناصَ هذه الأجزاءِ من الثوانيِّ التي سرّعتْ عمليةَ تضييعهِ للوقتِ، عَجَبِي!

وخُذْ ذلكَ الرجلَ الذي يزيدُ وزنُهُ عن المئةِ والخمسينَ، وهو يتلهّفُ في طوابيرِ الشراءِ ليقتنيَ «الآيباد» الجديدَ، لماذا؟ لأنَّ شاشَتهُ أصبحتْ أنحفَ بخمسةِ ملليمتراتٍ، وبالتالي أصبحتْ أخفَّ وزنًا بثلاثين جرامٍ مثلًا، وهوَ أخونا في اللهِ يزدادُ وزنُهُ كلَّ شهرٍ بضعةَ كيلاتٍ!

نعودُ للتقنيةِ، فأمَّا المعنَى الحقيقيُّ لمفهومِ «**التطورِ التقنيّ**» أو التطورِ التكنولوجيِّ فهوَ مفهومٌ يُعنى به عنايةً بالغةً في علمِ الاقتصادِ، وسأوضحُ تطبيقَ هذَا المفهومِ في الاقتصادِ عبرَ مثالٍ فيمَا بعدُ.

ولكنْ يجدرُ أولًا بيانَ معنَى التطورِ التقنيِّ في الاقتصادِ: هو في الحقيقةِ يعني زيادةَ الكفاءةِ الإنتاجيةِ لمنتجٍ مَا، بنفسِ عددِ الواردِ المتاحةِ في فترةٍ زمنيةٍ معينةٍ.

وفي العادةِ يتمحورُ التطورُ التقنيُّ حول تقليصِ عواملَ ثلاثةٍ تدخلُ في كلِّ صناعةٍ وعملٍ: الوقتُ والمالُ والجهدُ. ولنقفزْ للمثالِ:

افترضْ أنَّ هناكَ مزرعةٌ تنتجُ القمحَ، ويشتغلُ بها **عشرةُ** مزارعينَ، تُنتجُ هذهِ المزرعةُ سنويًا **عشرةَ** أطنانٍ من القمحِ، وهكذَا فإنَّ كلَّ مزارعٍ

يُنتجُ ما مقدارُهُ طنًّا واحدًا فقطْ من القمحِ.

الآنْ تصورْ أنَّ صاحبَ المزرعةِ استثمرَ في آلةٍ تقنيةٍ حديثةٍ تقومُ بجني محصولِ القمحِ وَأدخلهَا في الإنتاجِ، فأصبحتِ المزرعةُ تُنتجُ بنفسِ عددِ المزارعينَ **خمسينَ** طنًا من القمحِ.

هُنَا يُمكنُ القولَ فعلًا أنَّ هناكَ تطورًا تقنيًا، حيثُ ازدادَ الإنتاجُ معَ الحفاظِ على تكاليفِ التشغيلِ وبالتالي زادتِ الأرباحُ، ويمكنُ القولَ أنَّ هذهِ التقنيةَ تختصرُ الوقتَ والجهدَ وليس المالَ، ولكنْ إذا استُغنيَ عن خمسةِ مزارعينَ مع ثباتِ إنتاجيةِ المزرعةِ من المحصولِ، تكونُ اختصرتْ الوقتَ والجهدَ والمالَ ولم ترفعْ الإنتاجيّةَ.. وهكذا.

ولكنْ في حياتِنَا اليوميةِ، هلْ يهمّنا هذا الجانبَ الاقتصاديَّ الذي يُستخدمُ في تسويقِ كلِّ منتجٍ على أنهُ تطورٌ تقنيٌ؟

السيارةُ على سبيلِ المثالِ لا شكَّ أنها تقنيةٌ مذهلةٌ، ومعَ أنّهَا تقطعُ الأميالَ العديدةَ في سويعاتٍ قليلةٍ، إلا أنَّ العرباتِ ذات الأحصنةِ كانتْ تفِي بالغرضِ!

وكلمَّا ظنَّ الإنسانُ أنهُ يختصرُ من وقتِ يومهِ في استخدام هذه الاختراعاتِ إلّا أنَّ الحقيقةَ هيَ أنهُ يضيعُ الوقتَ الكثيرَ على أشياءٍ أخرَى، تجعلُ فائدةَ الاختراعِ وهميةً.

وأقربُ مثالٍ على ذلكَ هوس الجوالُ، فكيفَ أنهُ اختراعٌ يختصرُ الوقتَ الكثيرَ، ويجعلكَ أقربَ من كلِّ شخصٍ في العالمِ لتحادثهُ في ثوانٍ معدودةٍ،

إلا أنَّ أقربَ الأقرباءِ ازدادوا بُعدًا، وضاعتْ معظمُ الأوقاتِ من غيرِ نفعٍ.

فدخولُ تقنيةُ «الجوالِ» بهدفِ جعلِ الحياةِ أفضلَ بتسهيلِ التواصلِ بين الناسِ، نتجَ عنهُ في النهايةِ مزيدًا من التباعدِ والانشغالِ، وجعلَ الأقرباءَ غرباءَ.

ألم تكنْ الرسائلُ الورقيةُ أكثرَ حميميةٍ وأكثرَ صِدقٍ؟

حتَّى الطيرانُ الذي كانَ أقربَ إلى الحلمِ من الواقعِ، أصبحَ متاحًا لكلِّ شخصٍ في العالمِ تقريبًا، وأصبحتْ كلُّ بلدانِ العالمِ على مسافةِ يومٍ أو يومينِ فقطْ بالطائرةِ

إلا أنَّ العالمَ أيضًا بدأَ يفقدُ توَسّعَهُ، وعندمَا تدركُ أنكَ تستطيعُ الذهابَ إلى أيِّ مكانٍ في العالمِ، وبعدَ تجاربِ متكررةٍ في السفرِ هُنا وهناكَ، ستملُّ أخيرًا من هذَا الوضعِ، وستفقدُ تلكَ المتعةِ في الاستكشافِ.

والسؤالُ: كيفَ يضيقُ علينا هذا العالمُ على اتساعهِ؟ وكيفَ تُقرَّبُ المسافاتُ والعاداتُ والثقافاتُ على تنوعِهَا؟

عندما لا يوجدُ ما تستكشفهُ أو تستصعبُ فعلَهُ وتبذلُ الجهدَ في ذلكَ فلنْ يكونَ للحياةِ أيةَ متعةٍ!

عندما تفقدُ قيمةَ الجهدِ أو المالِ أو الوقتِ، فإنَّكَ ستنْسَى هذهِ النعمَ، وستنتقصُ معدلاتِ الرضا والسعادةِ، هذا ما أراهُ.

مِنْ هُنا أودُّ القولَ أن معادلةَ السعادةِ والرضا لم تكنْ أبدًا بتقليصِ تلكَ العواملَ الثلاثةَ: الوقتُ، والجهدُ، والمالُ، فالإنسانُ يشعرُ بالسعادةِ كلّما استغلَّ وقتهُ في عملِ شيءٍ يحبهُ، وكلمَّا بذلَ مجهودًا أكبرًا ازدادَ معدلُ رضاهُ عنْ ما يقومُ بهِ.

والمالُ أيضًا لمْ ولنْ تكونَ السعادةُ أبدًا في الازديادِ منهُ، واسألِ الأغنياءَ الذينَ يجدونُ السعادةَ، كل السعادةَ، في التصدقِ بالمالِ وإنفاقهِ لمساعدةِ الآخرينَ وليسَ على النفسِ، أو في اقتناءِ ما تشتهيهُ النفس وتلتذُّ به الأعينُ.

عَنِ الْكَاتِبِ

إنْ وصلتَ هُنا فأنا أقدّرُ لكَ ذلكَ جدًا..!

هذَا عبدالله، يُحبُّ أنْ يسميهُ الناسُ «الفيلسوف» ويشعرُ بالإطراءِ عندَما ينعَتُهُ الآخرونَ بالغرابةِ والتفلسفِ، لا يمشي عكسَ التيّارِ ولا يمشِي مَعهْ، يحبُّ رؤيةَ الأمورِ منْ منظورٍ مختلفٍ ويتفهمُ اختلافاتِ الناسِ وآراءَهُمْ، يحبُّ تحسينَ كلَّ شيءٍ، ولهذا فهوَ ينتقدُ كثيرًا ويرى عيوبَ الأشياءِ، ولكَنَّهُ يقدّرُ كَمَالاتُها وَمَحاسِنُها.

يُسعده تلقي الآراء والتعليقات من القُرّاء عبر قنوات التواصل:

Twitter: @AbdullahAlemadi

Email: a.al3madi@gmail.com

المحتويات

توطئة 7
يا مطوع 9
أعفه أحبه 15
تناقل الأفكار 23
عقلانية 27
مذكرة الموت 31
أنا عنصري 35
الزيف الأمني 39
القوة الروحية 43
حرية مقلوبة 47
شيء حول اقرأ 53
لا تتفلسف 57
هل أنت غني؟ 61
شيء من الروح 65
التحيون! 69
خدعوك فقالوا تطوع 75

بائع الورق 79
نعيم القراءة 85
تنكر الإعلاميين 89
فلسفة الإيجابية 93
لذة رمضانية 97
اللغة وعلاقتها بالهوية 101
سراب الحداثة 107

غلاف أخير